

Globethics Repository

The logo for Globethics, featuring the word "Globethics" in white sans-serif font on a blue rectangular background.

Kasyf al-Ghita 'an Ma'rifat al-Aqşam li al-Mustafa SAW (PART 1)

This page was generated automatically upon download from the Globethics Repository. More information on Globethics see <https://www.globethics.net>. Data and content policy of Globethics Repository see <https://repository.globethics.net/pages/policy>.

Item Type	Book
Authors	Al-Qodiri, Muhammad Thohir
Publisher	Manshurat Minhaj al-Quran
Rights	With permission of the license/copyright holder
Download date	2026-07-01 01:53:15
Link to Item	http://hdl.handle.net/20.500.12424/186664

كشفا الغطاء

عن

معرفة الأقطار للبصطفى

شيخ الإسلام الدكتور محمد طاهر القادري

تقديم

الحمد لله العليم القدير، الذي خلق نور نبيه البشير النذير
ﷺ قبل الأوائل كلها، فجعله رسولا نبيا قبل أن يخلق
أرواح الرسل والأنبياء وأودع نوره في الأصلاب العلية
الطاهرة كما رباه في الأرحام النقية الطيبة، فرأى تقلبه في
الساجدين إلى أن خلقه من الأبوين الكريمين البريئين
الطاهرين، فخصّصه بأجمل السير وأحسن الشّمائل وأطيب
الذكر ثم بعثه بعد فترة وفي نهاية الرسل، فأيدّه بأثبت
المعجزات، وعلى رأسها وأكبرها وأخلدّها، هو القرآن
الكريم، فهو أول النبيين خلقًا وآخرهم بعثًا، وبذلك قد
أخذ الله له الميثاق من أرواح الرسل والأنبياء في ملكوت
أزله، وكلفهم أن يؤمنوا به وينصروه، ويكونوا له أتباعًا
مطيعين وأشهدهم على ذلك، وهو عليه من الشاهدين،
كما نص عليه في كتابه العزيز فقال، وهو أصدق القائلين:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ
 وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ
 وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۗ قَالُوا
 أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

وبعد ... فإنه يطيب لي ويشرفني أن أقدم تقديمًا
 بهذه الكلمات القصار الموجزات لكتاب عظيم قد ألفه عالم
 نابغة في موضوع جليل وعن أعظم شخص وأكمل فرد في
 تاريخ البشر جميعًا ﷺ! فأما الكتاب العظيم فهو “كشْفُ
 الْغُطَا عَنْ مَعْرِفَةِ الْأَقْسَامِ لِلْمُصْطَفَى ﷺ” وأما مؤلفه العالم
 النابغة فهو نجم من نجوم الأمة ومفخرة من مفاخرها، ألا
 وهو حبرنا العلامة شيخ الإسلام الأستاذ الدكتور محمد
 طاهر القادري حفظه الله ورعاها! وأما الموضوع الجليل
 لذلك الكتاب العظيم فهو معرفة المكانة العظمى لسيد
 البشر وأعظم الرسل وآخر الأنبياء ﷺ عند ربه ﷻ، بما

أقسم به، وله، وعليه، في كتابه العزيز، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ
الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^١، إنه تعالى قد أقسم
برسوله الحبيب الأعظم الآخر كما أقسم عليه، وله صلى الله عليه
وآله وسلم،
فالرسول الحبيب الأكرم الآخر صلى الله عليه
وآله وسلم في القرآن الكريم إما
مقسم به، أو مقسم عليه، أو مقسم له، ولكن أنفس
الأقسام وأحلاها أن يكون صلى الله عليه
وآله وسلم هو المقسم له، وذلك حين
يقسم الله عز وجل في كتابه لرسوله الأكرم الأجل المبجل صلى الله عليه
وآله وسلم
بالكناية التي هي أبلغ من التصريح فذلك يُضيف الجلال
إلى جلاله والجمال إلى جماله صلى الله عليه
وآله وسلم، ولعل ذلك الذي جعل
شيخ الإسلام يختار اسمًا لكتابه العظيم “الأقسام للمصطفى
صلى الله عليه
وآله وسلم” وإن كان فضيلته قد استقصى في كتابه جميع أنواع
الأقسام التي وردت في القرآن الكريم عن الرسول المصطفى
صلى الله عليه
وآله وسلم، دون غيرها من الأقسام الأخرى في كتاب الله عز وجل،
وبذلك قد انفرد شيخ الإسلام القادري في هذا المجال! فقد

ألف السلف والخلف في موضوع الأقسام في القرآن الكريم ولكنهم تناولوا الأقسام بأنواعها كلها، كالإمام ابن القيم الجوزية في كتابه "التبيان في أقسام القرآن" والشيخ حميد الدين الفراهي في كتابه "الإمعان في أقسام القرآن" وغيرهما من المؤلفات للعلماء الأفاضل.

ولكن للشيخ القادري قصب السبق في المجال، إذ نراه قد انفرد وامتاز حين أفرد كتاباً مستقلاً لما جاء في الكتاب العزيز عن الأقسام برسول الله ﷺ، وعليه، وله، وتلك هي مزية نادرة قد أتت لشيخ الإسلام القادري، و﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعُ عَلِيمٌ﴾^١.

والذي أدهشني وأعجبتُ به كثيراً هو أننا لم نعهد الشيخ أديباً عربياً يُتقن العربية إتقاناً وإن كنا قد عرفناه خطيباً مصقلاً للأردية، وقد امتاز بأسلوب أخاذ جذاب مقنع، يستهوي النفوس، ويستأسر القلوب، كما أننا قد

عهدناه كاتبًا أرديا بارعًا يأتي بالروائع من النثر الأردني
بقلمه العذب السيال!

وأدهش وأعجب من ذلك كله هو أن الشيخ،
حفظه الله، قد دهانا بأسلوب بديع من السجع والقافية، إلا
أنه لا يأتي في هذا السجع وفي هذه القافية بالغريب
الوحشي من كلام العرب، وإنما يستخرج ويستعير مفرداته
اللغوية من القرآن الكريم مما جاء فيه من أسماء السور
وصفات الله ومن ميزات الرسول وألقابه ﷺ في الكتاب
العزیز، وذلك لا يتحقق إلا لمن عكف على سور القرآن
وآياته وتوغل في معارف التفسير، وتعمق في علوم القرآن،
واستفاد من أسرارها ورموزها، فانظر إلى شيخ الإسلام،
أبقاه الله، كيف يتخذ صفات الرسول وألقابه ﷺ من
أسماء السور القرآنية فيقول:

www.MinhajBooks.com

“وَجَعَلَهُ سِرَّ الْكِتَابِ وَفَاتِحَةَ الْوُجُودِ، الَّذِي شَرِبَتْ
بَقَرَةُ آلِ عِمْرَانَ مِنْ وَرْدِهِ الْمَوْرُودِ، وَامْتَدَّتْ لِبَرَّةِ النِّسَاءِ بِهِ

مَائِدَةُ الشُّهُودِ، وَالَّذِي طَافَتْ بِهِ أَنْعَامُ الْأَعْرَافِ ذُؤُوبُ
الْأَنْفَالِ، وَنَجَا بِهِ وَبِالتَّوْبَةِ يُؤْنَسُ وَهُودٌ وَيُوسُفُ مِنَ الرَّعْدِ
النِّقَالِ ... الخ”

والشيخ، حفظه الله، لا يتردد في معارضة من سبقه
أو مخالفته إياه فهذا ابن القيم الجوزية يرى أن “يس”
بمنزلة “حم” و “الم” وليست من أسماء النبي ﷺ،
ولكن القادري يوافق من قال: بأنه اسم من أسمائه ﷺ
كما أنه “صح فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم والتمجيد
والشهادة بأنه ﷺ من المرسلين!”
والحق أن “كشف الغطا” خطوة جديدة للقادري
في مجال التأليف، وقد تقدمت به تقدماً واضحاً ككاتب
عربي وأديب مُتَفَنِّينٍ كما أنه قد جاء بكتاب منفرد في آدابنا
العربية لشبه القارة، فقد ابتكره مؤلفه العلامة ليكون له
كتاباً نادراً ليس له نظير ولا مثال، ووقفه الله وسدّد خطاه!
وتقبّل منه وأبقاه ذخراً لأمة الإسلام!

أ. د. ظهور أحمد أظهر

لاهور، باكستان

في ۳۱/۸/۲۰۰۷ م عميد الكلية الشرقية لجامعة بنجاب سابقاً



www.MinhajBooks.com



الحمد لله الذي أمدَّ كُلَّ شيءٍ موجودٍ وأظهر
الشَّاهد والمشهود وجعل السَّماء سبع طبقاتٍ وشرف فيها
بنوره كلَّ موجودٍ وبه ظهرت العوالم وترتبت وتزخرفت
الأرض وتزيّنت ولولاه ما كان سلوك ولا سفر، ولا عين
ولا أثر، ولا مكان ولا تمكين، ولا حال ولا تلوين، ولا
نفس ولا قبس، ولا فرس ولا جرس، ولا تحلي ولا تجلي،
ولا تدني ولا ترقّي، ولا تدلي ولا تلقّي، ولا جود ولا
وجود، ولا حامد ولا محمود، ولا غين ولا رين، ولا كيف
ولا أين، ولا جمع ولا بين، ولا لذة ولا سماع، ولا إصاخة
ولا استماع، ولا سلخ ولا انخلاع، ولا صدق ولا يقين،
ولا خفي ولا ميبين.

www.MinhajBooks.com
والصَّلَاة والسَّلَام عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي حَسَّنَ
اللَّهُ صُورَتَهُ بِجَمَالِ ذَاتِهِ وَأَلْبَسَهُ بِأَنْوَارِ صِفَاتِهِ، وَأَظْهَرَ

حُسْنَ أُسُوتِهِ وَسَيْرَتِهِ مِنْ أَشِعَّةِ سُورِ الْقُرْآنِ، وَزَيْنَ خُلُقِهِ
وَعَادَتِهِ مِنْ لَمَعَةِ آيَاتِ الْبُرْهَانِ، وَجَعَلَهُ سِرَّ الْكِتَابِ وَفَاتِحَةَ
الْوُجُودِ، الَّذِي شَرِبَتْ بَقْرَةُ آلِ عِمْرَانَ مِنْ وَرْدِهِ الْمَوْرُودِ،
وَأَمْتَدَّتْ لِبَرَّةِ النِّسَاءِ بِهِ مَائِدَةُ الشُّهُودِ، وَالَّذِي طَافَتْ بِهِ
أَنْعَامُ الْأَعْرَافِ ذُؤُوبُ الْأَنْفَالِ، وَنَجَا بِهِ وَبِالتَّوْبَةِ يُؤْتَسُّ وَهُودُ
وَيُوسُفُ مِنَ الرَّعْدِ الثَّقَالِ، وَسَعِدَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ فِي حِجْرِ
الْفِصَالِ، وَحَصَلَ بِهِ وَحْيُ النَّحْلِ وَإِسْرَاءُ الْكَمَالِ، وَشَرِبَ
بِهِ أَصْحَابُ الْكَهْفِ مِنْ حَمْرَةِ الْوِصَالِ، وَالَّذِي حَمَلَتْ بِهِ
مَرْيَمُ لِأَنَّهُ طَهَّ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ، وَهُوَ حَجُّ الْمُؤْمِنِينَ وَالنُّورُ
وَالْفُرْقَانُ لِلشُّعْرَاءِ الْعَارِفِينَ، وَالَّذِي آمَنَ التَّمَلُّ بِالْقِصَصِ
لَدَيْهِ، وَعَشَعَشَ الْعَنْكَبُوتُ فِي الْغَارِ عَلَيْهِ، وَالَّذِي أذْعَنْتْ لَهُ
الرُّومُ بِأَنَّهُ لُقْمَانُ الْحِكْمَةِ وَسَجْدَةُ الْأَحْزَابِ، وَسَبَى بِمَحَبَّتِهِ
الْقُلُوبَ وَهُوَ حَبِيبُ فَاطِمَةَ الْأَلْبَابِ، وَالَّذِي هُوَ يَاسِينَ
الصَّافَّاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَهُوَ صَادُ الزُّمَرِ مِنَ الطَّائِفَةِ
الْمُبَارَكَةِ، وَهُوَ سِرُّ غَافِرِ الذَّنْبِ التَّوَابِ الْعَفُورِ، وَفُصِّلَتْ لَهُ

الآيَاتُ وَالْأُمُورُ، وَالَّذِي هُوَ صَاحِبُ الشُّورَى بَيْنَ
الْأَصْحَابِ وَالْأَحْبَابِ وَالْأَشْرَافِ، وَزُخْرِفَ دُحَانَ النَّفْسِ
الْجَائِيَةِ عَنْهُ بِالْأَحْقَافِ، وَالَّذِي هُوَ صَاحِبُ الْفَتْحِ
وَالْحُجْرَاتِ، وَقَافُ الذَّارِيَّاتِ مِنْ طُورِ النَّفُوسِ بِالتَّجَلِّيَّاتِ،
وَالنَّحْمِ الَّذِي طَلَعَ بِنُورِ الْهُدَى وَالسُّلْطَانِ، وَالْقَمَرِ الَّذِي
نَوَّرَ الْكَوْنَ بِنُورِ الْإِيْمَانِ وَالْبُرْهَانِ، وَهُوَ الْمُسْتَمِدُّ مِنْ عِلْمِ
الرَّحْمَنِ، الَّذِي هُوَ صَاحِبُ الشَّفَاعَةِ وَالْكَرَامَةِ يَوْمَ الْوَأَقِعَةِ،
وَصَاحِبُ الْحَدِيدِ فِي الْمُقَاتَلَةِ وَصَاحِبُ الْمِيزَانِ فِي
الْمُجَادَلَةِ، وَالَّذِي كَتَبَ اللهُ لِأَعْدَائِهِ الْحَشْرَ وَالْعَذَابَ
وَالْجَلَاءَ، وَأَعْطَاهُ أُسُوءَ مُمْتَحِنَةٍ فِي كُلِّ فِتْنَةٍ وَبَلَاءٍ، وَالَّذِي
قَاتَلَ أَصْحَابَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ صَفَا كَانْتَهُمْ بِنِيَانٍ مَرَّضُوصٍ،
وَكَثَرَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِالْحُكْمِ الْمَنْصُوصِ،
وَالَّذِي يُرَى الْمُنَافِقُونَ عِنْدَهُ كَانْتَهُمْ حُشْبٌ مُسْنَدَةٌ، وَسَتَاتِي
إِلَيْهِ الْأُمَّمُ يَوْمَ التَّعَابِنِ كَالْجُنُودِ الْمُجَنَّدَةِ، الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ
لِأَجْلِهِ أَحْكَامَ التَّحْلِيلِ وَالطَّلَاقِ وَالتَّحْرِيمِ، كَتَبَتْ لَهُ يَا

مَالِكِ الْمُلْكِ، مَنْ أَهَانَهُ مِنْ أَهْلِ عَذَابِ أَلِيمٍ، هُوَ مِنْ قَلَمٍ
وَنْ وَمَا يَسْطُرُونَ، وَهُوَ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ لِيَوْمِ الْحَاقَّةِ إِذَا هُمْ
يُعْرَضُونَ، وَهُوَ مَعَارِجُ نُوحٍ وَجَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ
الصَّالِحِينَ، وَهُوَ الْمَزْمَلُ وَالْمُدَّثِّرُ وَالْمَرْجِعُ فِي الْقِيَامَةِ
لِلْمُذْنِبِينَ، هُوَ أَوَّلُ الدَّهْرِ وَآخِرُهُ وَعَرَفُ الْمُرْسَلَاتِ وَذِكْرُ
الْمُلْكِيَّةِ، وَهُوَ الْإِمَامُ لِأَهْلِ النَّبِيَّةِ وَقُدُوءُ الْمَلَائِكَةِ النَّازِعَاتِ
وَالنَّاشِطَاتِ، هُوَ صَاحِبُ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ لِمَنْ عَبَسَ مِنْ
التَّكْوِيرِ وَالْإِنْفِطَارِ، وَالْقَاطِعُ لِلْمُطَفِّفِينَ بِأَنْشِقَاقِ الْبُرُوجِ
وَبَطْشِ الْجَبَّارِ، هُوَ الطَّارِقُ فِي الْأُفُقِ الْأَعْلَى بِغَاشِيَةِ الْفَجْرِ،
وَأَقْسَمَ اللَّهُ لَهُ بِالْبَلَدِ وَالشَّمْسِ وَاللَّيْلِ الْحَجْرِ، هُوَ ضُحَى
الْإِيمَانِ لِمَنْ شَرَحَ اللَّهُ بِهِ صَدْرَهُ انْشِرَاحًا كَامِلًا، وَافْتَخَرَ
التَّيْنُ وَالْعَلْقُ بِقَدْرِهِ افْتِخَارًا شَامِلًا، وَهُوَ الَّذِي جَاءَ مَعَهُ
الْبَيِّنَةُ، وَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ وَالْعَادِيَاتُ بِالْقَارِعَةِ، هُوَ الَّذِي أَخْبَرَ
عَنْ هَلَاكِ التَّكَاثُرِ فِي الْعَصْرِ لِلنَّفْسِ الْهَمْزَةِ، الَّذِي وُلِدَ عَامَ
الْفَيْلِ وَابْتَهَجَتْ قُرَيْشٌ فِي الْمَاعُونِ مِنَ الْكُوْثَرِ، وَانْهَزَمَ

الْكَافِرُونَ بِيَدِهِ بِالنَّصْرِ عَلَى أَبِي جَهْلٍ وَأَبِي لَهَبٍ، وَكَمُلَ لَهُ
الإِخْلَاصُ وَتَمَّ لَهُ الْفَلَقُ وَكُلُّ عَزْفٍ، وَالَّذِي اهْتَدَى بِهِ
النَّاسُ وَأُعِيدُوا مِنْ شَرِّ الْخَنَاسِ، وَوَصَلُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ
وَاقْتَرَبُوا إِلَى رَبِّ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ.

فَإِنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا ^{صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} هُوَ عَرْشُ الْحَقَائِقِ، وَسَمَاءُ
الدَّقَائِقِ، وَفَلَكَ الرَّقَائِقِ، وَشَمْسُ اللَّطَائِفِ، وَقَمَرُ الْعَجَائِبِ،
وَنَجْمُ الْغَرَائِبِ، هُوَ أَرْضُ أَسْرَارِ الْجَبْرُوتِ وَبِحَرِّ أَنْوَارِ
الْمَلَكُوتِ، وَسِدْرَةُ النَّبُوءَةِ وَمُنْتَهَى الرِّسَالَةِ، وَغَوْثُ الْفَضَائِلِ
وَقُطْبُ الشَّمَائِلِ، وَعَرَّوسُ الْمَحَاسِنِ وَسُلْطَانُ الْمَحَامِدِ،
وَعَرْشُ حَقِيقَةِ الْجَلَالِ وَكُرْسِيُّ مَعْرِفَةِ الْجَمَالِ، وَلَوْحُ
صِفَاتِ الْكَمَالِ وَقَلَمُ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ، وَالْجَامِعُ لِلْأَمْرِ
وَالْخَلْقِ وَالْمِثَالِ، هُوَ نَوْرُ التَّجَلِّيَّاتِ وَحُسْنُ التَّحْلِيَّاتِ،
وَمَقْصُودُ الْوَحْيِ وَالتَّنَزُّلَاتِ، وَسِرُّ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَاتِ،
وَمَعْنَى الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ، وَمَعْرِفَةُ الْآيَاتِ الْمُشَابِهَاتِ،
وَمِفْتَاحِ أَسْرَارِ الْمَعْقُولَاتِ وَنَوْرِ أَنْوَارِ الْمَحْسُوسَاتِ، وَشَمْسِ

جميع الموجودات، وسراج عوالم الكائنات، وفرحة
النسمات، وبهجة التفحات، ونزهة اللّمحات، والنور
الطالع فوق السموات، والسر اللامع في الحضرات، مظهر
أسرار الذات، ومنظر أنوار الصفات، لمعة بروق
الإشارات، وأشعة كواكب العبارات، وعين جميع الأرواح،
وقلب جميع الأشباح، وزبدة التسيحات العليات، ولبابة
التقديسات الأزليات، والنور الأول في أرفع المكنات،
والروح الأعظم في أعلى الحجابات، والسر الأكمل في
أقرب الحضرات، وعظيم المقام في علو التنزهات، وعزيز
المرام في دنو التنزلات، والظاهر في التوضيحات، والباطن
في التلويحات، والسر في التصريحات، والخفي في الكنايات
هو نور الطور، وبيان الكتاب المسطور، والمحفوظ في الرق
المنشور والمرفوع إلى البيت المعمور، والفائق على البحر
المسجور، والجالس على العرش يوم النشور، خلقه الله
تعالى ولم يكن في ذلك الوقت عرش ولا كرسي، ولا

مَلِكٌ وَلَا جَنِّي وَلَا إِنْسِيّ، وَلَا جَنَّةٌ وَلَا نَارٌ، وَلَا لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ، فَخَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْهُدَايَةِ رَأْسَهُ، وَمِنَ الطَّيِّبِ أَنْفَاسَهُ، وَمِنَ الرَّحْمَةِ وَجْهَهُ، وَمِنَ الرَّأْفَةِ قَلْبَهُ، وَمِنَ الْفَتْحِ صَدْرَهُ، وَمِنَ الصَّبْرِ بَطْنَهَ، وَمِنَ السَّخَاءِ كَفَّهُ، وَمِنَ الذِّكَاةِ أَنْفَهُ، وَمِنَ الْحُسْنِ عَيْنِيهِ، وَمِنَ الْجَمَالِ خَدْيِيهِ، وَمِنَ لَذِيذِ الْخِطَابِ أُذُنِيهِ، وَمِنَ اللَّطْفِ شَفَتَيْهِ، وَمِنَ بَسْطِ الْعَطَاءِ يَدَيْهِ، وَمِنَ الشُّكْرِ ثَدْيِيهِ، وَمِنَ الْعِظَمَةِ مَنْكِبَيْهِ، وَمِنَ قَوْسَيْنِ حَاجِبَيْهِ، وَمِنَ الْقُرْبَةِ ذِرَاعِيهِ، وَمِنَ الْقُوَّةِ عَضُدَيْهِ، وَمِنَ الْعَزِيمَةِ سَاقِيهِ، وَمِنَ التَّمْكِينِ قَدَمَيْهِ، وَمِنَ الْعَفْوِ نُطْقَهُ، وَمِنَ الصَّفْحِ خُلُقَهُ، وَمِنَ الشَّرَفِ هِمَّتَهُ، وَمِنَ الْحُلُولِ لَهْجَتَهُ. وَمِنَ الْبُرْهَانِ لِسَانَهُ، وَمِنَ السُّلْطَانِ شَأْنَهُ وَمِنَ الضِّيَاءِ أَسْنَانَهُ، وَمِنَ الْعِبَادَةِ ظَهْرَهُ، وَمِنَ الْمَحَبَّةِ جَنْبَهُ، وَمِنَ الْقُدْرَةِ عِزْمَهُ، وَمِنَ النَّصَارَةِ حُسْنَهُ، وَمِنَ الْعُلُوِّ شَرَاْفَتَهُ، وَمِنَ الدُّنُوِّ مَكَانَتَهُ وَمِنَ الْكَمَالِ جَلَالَتَهُ، وَمِنَ الْجَلَالِ كَرَامَتَهُ، وَمِنَ

فيض الرَّحْمَانِيَّةِ جُودَهُ وَمِنَ فَيْضِ الرَّبُّوبِيَّةِ وُجُودَهُ.

أما بعد: فإنَّ الله ﷻ يُقسِمُ في القرآنِ بأُمورٍ على
أُمورٍ، تارةً يقسم بذاته وصفاته وتارةً يُقسم بآياته، تارةً
يُقسم على التوحيد وتارةً على النبوة والرَّسالة والوعد
والوعد، تارةً يقسم على القرآن، وتارةً على الجزاء والمعاد،
والأعمال الحسنة وأحوال الإنسان، وتارةً بالأشياء،
والمواقع، والأماكن والأزمان، فمنها: الأُمور التي جعلها
مُقَسِّمًا بها ولا يقسم عليها كالشمس، والقمر، والنجوم،
والليل، والنهار، والسَّماء، والأرض، والجبال، والبحار،
وجعل بعض الأُمور منها مُقسِّمًا عليها. وذلك لأنَّ الحكم
يفصل باثنين: إمَّا بالشَّهادة وإمَّا بالقَسَم، فذكر الله تعالى في
كتابه النوعين، حتى لا تبقى للناس حجة، ومن الأصول أنه
لا يكون القسم إلا باسمٍ معظَّمٍ وشيءٍ مكرَّمٍ فأقسم الله
تعالى بنفسه في القرآن في سبعة مواضع، والباقي كَلِّه أقسم
بمخلوقاته، قال الإمام أبو القاسم القشيري: القسم بالشيء
لا يخرج عن وجهين: إما لإظهار فضيلةٍ أو لإظهار منفعةٍ،

فالفضيلة كقوله: ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا أَلْبَدِ الْأَمِينِ

﴿٢﴾ والمنفعة نحو: ﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾﴾. ومن لطائف

القسم أنه تعالى أقسم لنبية الحبيب المصطفى ﷺ ليعرف
الناس عظمته عند الله ومكانته لديه.

فتارة أقسم الله به ﷺ وتارة أقسم عليه ﷺ،

فجعله مقسماً به في بعض الآيات ومقسماً عليه في بعض

المقامات، تارة أقسم بعمره وحياته ﷺ وتارة أقسم بنبوته

وصفاته ﷺ وتارة أقسم ببلده ومولده ﷺ، وتارة أقسم

على إنعامه عليه وتارة على إكرامه لديه ﷺ وهذا من

فضائل النبي ﷺ بأن الله تعالى أقسم به وأقسم عليه ﷺ

أكثر وأزيد من كل نوع من الأقسام، إخباراً عن إجلال

قدر نبيه ﷺ وتبجيله وتعظيمه ﷺ وإظهاراً لعلو مرتبته

وكمال منزلته ورفعة مكانته ﷺ، وذلك كما لا يخاطبه

www.MinhajBooks.com

١. التين، ٩٥: ٢-٣

٢. التين، ٩٥: ١

ﷺ ولا يخبر عنه ﷺ إلا بالكناية وهي النبوة والرّسالة
التي لا شيء أجلّ منها فخراً ولا أعظم خطراً وخاطب
غيره ﷺ من الأنبياء وأخبر عنهم بأسمائهم، ولم يذكرهم
بالكناية، هذه هي غاية المرتبة ونهاية الفضيلة التي لم تثبت
لأحد إلا للرّسول النبي الأمي ﷺ لأن من بلغ به غاية
التّعظيم كني عن اسمه، فإن كان ملكاً يقال له: أيها الملك،
وإن كان أميراً يقال له: أيها الأمير، ولا يخاطبه بالاسم،
فنحن نرى في القرآن بأنّ الله لم يقسم به باسمه بل أقسم له
ﷺ بالكناية وهذه زيادة في جلالته ونبالته وشرفه
ونباهته، ومن فضائله ﷺ: أن من تقدمه من الأنبياء عليهم
السلام كانوا يدفعون ويردون عن أنفسهم ما نسبته إليهم
أعداؤهم ومكذبوهم من السفه، والضلال، والكذب،
والسحر وغيرها، ولكن نزه الله تعالى حبيبه ﷺ عما
نسبوه إليه تشريفاً له وتعظيماً، وبرأه الله من كل ما رموه
به من السّحر والكهانة والجنون والشّعر.

وذبَّ اللهُ عنه ﷺ استهزاء هم وردَّ عليهم
استنكارهم واستكبارهم مجيئاً عنه ﷺ تارة مقسماً به
وتارة مقسماً عليه، وفي بعض السُّور أقسم اللهُ له ﷺ
بأقسامٍ كثيرةٍ في الرَّدِّ على طعن واحد واختار كثيراً من
أساليب القسم تأكيداً لعصمته، وعزَّته، ومنزلته وكرامته
ومن فضائله ﷺ: أن اللهُ تعالى قرن اسمه ﷺ
باسمه، وذكَّره ﷺ بذكره، وطاعته ﷺ بطاعته، وحُكمه
بِحُكمه، ومعصيته ﷺ بمعصيته، وأذيتَه ﷺ بأذيتِه،
وحرمة ﷺ بحرمة، وأمره ﷺ بأمره، ونهيَه ﷺ بنهيَه،
ورضاهُ ﷺ برضاهُ، وعطائه ﷺ بعطائه، وإغنائه ﷺ
بإغنائه، وفضله ﷺ بفضله، ونعمته ﷺ بنعمته، ومحبَّته
بمحبَّته، وقربته ﷺ بقربته، وأذانه ﷺ بأذانه وبرائه
ببراءته، ومشاقته ﷺ بمشاقته، ومحادثَه ﷺ بمحادثَه،
ومحاربتَه ﷺ بمحاربتَه، واستجابته ﷺ باستجابته.

فإن هذا الأمر متعارف عليه ومسلّم بين العقلاء
والعلماء أن الأقسام لا تقع إلا على المعظمين، والمبجّلين
والمكرّمين فتبيّن بهذا جلالة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وعظمة نبوّته وكرامة
الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ورفعته رسالته، وكذلك أن الإسمين
والذكرين والأمرين والحكمين لا يُقرنان ولا يُجمعان ولا
يُشركان ولا يشتركان إلا للمُحِبِّينِ والمتقارِبِينَ والمتلازمِينَ
والمستلزمِينَ.

فعندما علمنا أن الله تعالى جعل محبّته مشروطةً
بمحبّته صلّى الله عليه وآله وسلّم وطاعته منوطة بطاعته صلّى الله عليه وآله وسلّم، وذكره مقروناً
بذكره صلّى الله عليه وآله وسلّم، وكلمته معلومة بنطقه صلّى الله عليه وآله وسلّم، وبيعته مفروضة
ببيعته صلّى الله عليه وآله وسلّم، وأقسامه مقصودةً بإظهار شرفه صلّى الله عليه وآله وسلّم، وتبيانه
فضيلته صلّى الله عليه وآله وسلّم فسألت التوفيق من الله تعالى أن يقدر لي أن
أجمع الآيات البيّنات من القرآن العظيم التي أقسم الله جلّ جلاله
فيها للنبي الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم تنزيهاً له وتنويهاً
وتبجيلاً له وتعظيماً وأن أشرحها وأفسرها بما يتيسر لي من

فيض عطاياه ومكنونات خزائنه ﷺ فاستعنت بالعزير
الحكيم العلام واستخرته في جميع ذلك منه وتوسّلت
بسيّدنا محمدٍ خير الأنام ﷺ وتوجّهت إليه في جميع ما
ألّفته منه وجمعت في هذا التّأليف بعض فضائل النّبي ﷺ
قد ظهرت لي من الأقسام التي ذكرت في القرآن الكريم
ونقلتُ فيه من بعض الفوائد والفرائد من كلام الأئمة
الأعلام إضافةً إلى ما أخذت وما فهمت وما استخرجتُ
من بُحور المعارف القرآنية وأنهار المعالم العرفانية ومن منابع
الفيوضات النّبويّة ومصادر الفتوحات المدنيّة واستدللتُ فيه
من الآيات والأحاديث الصحيحة وأقوال الصحابة
والتّابعين، وتحقيق أئمة المحقّقين المعتمدين ورجوت أن يجدَ
مُطالعُه فيه ما يقصد ويريد فإني أعترفُ اعتراف عبدي
معترفٍ بالعجز والتقصير، وأشكر الله تعالى على ما أعان
عليه من قصدٍ وَيَسَّرَ من عسيرٍ وأرجو العفو والنّجاة به في
الآخرة من عذاب السّعير وشفاعة سيّدنا محمدٍ البشير النذير

السراج المنير، المبعوث إلى كافة الخلق من غني وفقير،
وحسبنا الله ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير.

١. فأبتدأ بالقسم الأول الذي أقسم الله تعالى فيه بنفسه
المقدسة مؤكداً إذ قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ
يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا
قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٦٥﴾ جعل الله ﷻ نفسه وربوبيته
في هذه الآية مقسماً به وجعل نبيه الحبيب ﷺ مقسماً
عليه وأكد بالقسم على عدم إيمان الخلق حتى يُحَكِّمُوا
رسوله ﷺ في كل ما شجر بينهم ولم يثبت لهم الإيمان
بمجرد التحكيم حتى يَنْتَفِيَّ عنهم الحرج وهو ضيق الصدر
والشك، وتنشرح صدورهم لحكمه ﷺ كل الانشراح
وتنفسح له كل الانفساح ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضاً
حتى يقبلوا ويطيعوا حكمه وأمره ﷺ بالرضى والتسليم،
وعدم المنازعة والمعارضة.

الوجهُ الأوَّلُ: في القَسَمِ: جاءَ “لا” الأولى ردًّا
لِزعم المنافقين، ثم استأنف قَسَمًا بعد ذلك، فعلى هذا
يكون الوقف على “لا” الأولى تامًّا.

والوجه الثاني: أن “لا” الأولى قُدِّمت على القسم
اهتمامًا بالنفي ثم كرِّرت توكيدًا للنفي.

الوجه الثالث: أن “لا” الأولى في قوله ﴿فَلَا
وَرَبِّكَ﴾ زائدة للتأكيد المزيّد على القسم تعظيمًا للنبي صلى الله عليه وآله
وتفخيماً وتنويهاً له صلى الله عليه وآله وهذا لتأكيد وجوب العلم أيضاً
فمعناه: يا حبيبي، ليس الأمر كما يزعمون من أنّهم آمنوا
بما أنزل إليك وهم لا يقبلون ويسلمون بولايتك
وبتحكيمك على نفوسهم وأمورهم وخيارهم ولا
يجعلونك حاكماً عليهم وحكماً بينهم فأقسمتُ لك
بربِّك يا محمد، بأنّه لا يؤمن هؤلاء حتّى لا يخالفوك في
شيءٍ وحتى يحكّموك فيما اختلف واختلط والتبس
وأشكل ووقع بينهم من المخاصمات والمنازعات، فتقضي

بينهم فيها وحتى لا يحسّوا في قلوبهم حرجاً وضيقةً وشكاً
وريباً وينقادوا لك بظواهرهم وبواطنهم انقياداً تامّاً
وتسليماً كاملاً مُدعّينَ في نُفوسِهِم لِحُكْمِكَ وَقَضَائِكَ
وَمُوقِنِينَ بِقُلُوبِهِم بِأَمْرِكَ وَرِضَاكَ فَإِنَّ هَذَا الْقِسْمَ لِلنَّبِيِّ
ﷺ أَوْجَبَ الانقيادَ لحكمه في كُلِّ حالٍ فبينَ أَنه لا بُدَّ أَنْ
يعتقدوا في عصمة النبي ﷺ وتنزيهه ﷺ عن صدور
الخطأ في كلِّ حالٍ ومقالٍ فهذه إشارةٌ بليغةٌ في إقسام الله
تعالى للنبي الحبيب المصطفى ﷺ.

٢. وكذلك أقسم الله تعالى به ﷺ في مواضع كثيرة
في القرآن لإظهار عظيم قدره ﷺ ومنزلته ﷺ وشرفه
ﷺ ومرتبته ﷺ. إذ قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ﴾^١ وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس
رضي الله عنهما قال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ لَعَيْشُكَ. وروى أبو الجوزاء عن ابن
عباس رضي الله عنهما قال: لحياتك ومعناه: أُقسِمُ، فقال: أقسم

بِالنَّبِيِّ ﷺ وَحَيَاتِهِ ﷺ إِنْهُمْ لَفِي غَفْلَتِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ. روى
هذا سفيان عن الأعمش أيضاً.

فأظهر الله تعالى له ﷺ نهاية البر والتشريف
والتعظيم إذ أقسم بحياته ﷺ، وما خلق الله تعالى وما ذرأ
وما برأ نفساً أكرم عليه من النبي الحبيب المصطفى ﷺ
لأنه ما أقسم بحياة أحد غيره، فجعل حياته الكاملة من
الولادة إلى الوفاة معصوماً مأموناً طاهراً مطهراً ومنزهاً
عن كل عيب وذنس وريب وخطأ قبل بعثته ﷺ وبعدها
لأنه لم يُقسم ببعثته ﷺ بل أقسم بعمره ﷺ.

٤/٣. وكذلك قال: ﴿يَسَ ۖ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ
لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾^١ وقيل: هذا من أسمائه ﷺ وضح فيه
أنه قسمٌ كان فيه من التعظيم والتمجيد والشهادة بأنه ﷺ
من المرسلين وذكر النحاس قول عكرمة، قال: هو قسم
فأقسم الله تعالى بـ: ﴿يَسَ﴾ وبـ: ﴿الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾،

قال النّقاش: لم يُقسم الله سبحانه لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا لحمدٍ ﷺ وتعظيمًا له وتمجيدًا فقال في "إنسان العيون": من خصائصه ﷺ أن الله تعالى أقسم على رسالته ﷺ بقوله: ﴿يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ قال سعيد بن جبير وغيره: هو اسم من أسماء محمد ﷺ دليله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ وقال الحموي:

يَا نَفْسُ لَا تَمَحْضِي بِالْوُدِّ جَاهِدَةً

عَلَى الْمَوَدَّةِ إِلَّا آلَ يَاسِينَا

ومنه قوله: ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِلَٰ يَاسِينَ ۝﴾ أي على آل محمد ﷺ، كما قرأ زيد بن علي ونافع وابن عامر: ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِلَٰ يَاسِينَ ۝﴾ وروى الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: يريد يا إنسان، يعني محمدًا ﷺ وقال أبو بكر الوراق: معناه: يا سيّد البشر، وروى السّلمي عن الإمام جعفر

الصادق عليه السلام: أن معناه يا سيّد، ورجّح الزّجاج: أن معناه
 يا محمّد، وقال كعب: هو قَسَمٌ أقسم الله به ولا شك بأن
 “الواو” في ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ قسمٌ أو أنه مُقسَمٌ به
 فمعناه: يا سيّد، يا محمّد، أقسم بك وبكتابك القرآن،
 ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي إنّك أكمل الرّسل وأفضل
 الكل، وذكر القشيري معناه: يا سيّد، ويقال: “الياء” في
 ﴿يَسَ﴾ تشير إلى يوم الميثاق، فمعناه: يا سيّد الرّسل،
 أقسم بيوم الميثاق، ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وأقسم
 بالقرآن الحكيم، إنّك ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

٦/٥. وكذلك أقسم الله تعالى في سورة "ص" بقوله:
﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ
﴿١﴾.

قال الضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه ﴿صَّ﴾ إنَّه قَسَمَ أقسم
الله به وكما قال البغوي، والقرطبي، والقشيري،
والواحدي، وابن القيم وغيرهم.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿صَّ﴾ معناه صدق محمدٌ
صلَّى الله عليه وآله، وذكره أبو الحسن الواحدي وهو نقله عن الأَخْفَشِ،
وقال البغوي والخازن: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١﴾: أقسم
الله صلَّى الله عليه وآله في القرآن بأنَّ محمدًا صلَّى الله عليه وآله لصادقٌ، ومجاز الآية: أنَّ
الله تعالى أقسم بـ: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١﴾ بَلِ الَّذِينَ
كَفَرُوا ﴿١﴾ من أهل مكة ﴿في عِزَّةٍ﴾ أي حمية جاهلية وتكبرٍ عن
الحق ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي خلافٍ وعداوةٍ لمحمدٍ صلَّى الله عليه وآله.

www.MinhajBooks.com

وقال القرطبي: وله في ذلك ثلاثة مذاهب
وأحدهن: إنه قَسَمَ وقيل معناه: "صَادَ" مُحَمَّدٌ ﷺ قلوبَ
الخلق واستعمالها حتى آمنوا به، وقال: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي
الذِّكْرِ﴾ أي ما الأمر كما يقولون مِنْ أَتَى سَاحِرٌ
كذَّابٌ لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة بل هم في تكبرٍ
وامتناعٍ عن قبول الحق.

وهناك بعض ملاحظات في هذه الآيات: ﴿صَ
وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢١﴾
وقوله: ﴿صَ﴾ يكون هذا النوع بحرف القسم مجرداً،
وجواب القسم فيه محذوف، ولا يُرادُ ذكره، بل يُرادُ تعظيم
المقسم به، فحذِفَ جوابُ القسم في القرآن في مواضع
كثيرة. قال ابن القيم: هذا القسم كقول مَنْ حَلَفَ
بشخص أَنَّهُ يُحِبُّهُ، وَيُعْظِمُهُ، فقال: والذي ملأ قلبي من
محبَّتِك وإجلالك ومهابتك، وكمن أراد أن يُقسِمَ على
عُلُوِّه تعالى فوق عرشه فقال: والذي استوى على عرشه،

فوق سماواته، يصعد إليه الكَلِمُ الطَّيِّبُ، وتُرفَعُ إليه الأيدي،
وتعرج إليه الملائكة والرووح، ونحو ذلك لم يحتج إلى جواب
القسم، وكان في المُقسَمِ به ما يدل على المُقسَمِ عليه، فإنَّ
في المُقسَمِ به مِنْ تصديق النبي محمد صلَّى اللهُ
وآلِهِ وَسَلَّمَ وتعظيمه ووصفه
صلَّى اللهُ
وآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه صادقٌ وتصديق القرآن وتعظيمه ووصفه بأنه ذو
الذكر، والشرف، والمكانة، المتضمَّن لتذكير العباد ما
يحتاجون إليه، وهذا لإظهار الشرف والقدر والعظمة لهما،
وهذا ما يدلُّ على المُقسَمِ عليه، وهذا قول كثيرٍ مِنَ
المُفسِّرين. متقدِّمهم ومتأخِّريهم بأنَّ الجواب محذوف.
وقال أبو القاسم الزجاجي: قال النحويون: إنَّ “بل” في
﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، تقع في جواب القسم كما تقع “إن”
لأنَّ المراد بها تأكيد الخبر، وهذا القول اختيار أبي حاتم،
وحكاه الأخفش عن الكوفيِّين وقال الفراء: ﴿ص﴾ جواب
القسم، فهي جواب لقوله ﴿وَالْقُرْآنِ﴾.

وذكر الشوكاني عن عطاء أيضاً: ﴿صَ﴾ معناه
صِدْقٌ مُحَمَّدٌ ﷺ، أي أقسمتُ بـ: ﴿صَ﴾ وبـ:
﴿الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، إنه لمعجزٌ، أو الواجب العمل به،
أو أن محمداً لصديقٌ.

وذكر البيضاوي وجهاً آخر في ﴿صَ﴾ وقال:
“الواو” في قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ للقسم، إن تُجْعَلَ ﴿صَ﴾
اسماً للحرف المذكوراً للتحدّي أو للرمز بكلام، مثل: صِدْقٌ
مُحَمَّدٌ ﷺ أو الواو للعطف إن جعل مُقْسَماً به، أي:
أقسمتُ بـ: ﴿صَ﴾ وبـ: ﴿الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾،
والجواب محذوف، دلّ عليه ما في “ص” من الدلالة على
التحدّي كما ذكرناه متقدّماً، وفي الوجه الأول يكون معنى
الآية: أي أقسم بالقرآن ذي الذكر، والشرف، والرفعة إنه
لمعجزٌ وإنَّ محمداً لصديقٌ فيما يدعيه من النبوة وإنه مرسلٌ
من ربه إلى الأسود والأحمر وإن كتابه ﷺ لمنزل من
عنده تعالى، ولما كان الإقسام دالاً على صدق نبي ﷺ

وَصَدَقَ كِتَابٌ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِمَحَلٍّ لِلرَّيْبِ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالِ مُبِينًا
لِلسَّبَبِ الْحَقِيقِيِّ فِي كَفْرِهِمْ: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ
﴿١﴾ وَهُوَ مَجْرَدُ الْخِصَامِ، وَالشِّقَاقِ، وَالْحَمِيَّةِ، وَالْعَدَاوَةِ
مَعْنَاهُ: بَلْ كَذَّبُوا لِمُشَاقَّتِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحِرْصِهِمْ عَلَى
عَدَاوَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ.

ذَكَرَ أَبُو حَيَّانَ فِي "الْبَحْرِ" قَالِ الْفَرَّاءُ وَثَعْلَبُ: بِأَنَّ
الْمَعْنَى وَالْقُرْآنَ لَقَدْ صَدَقَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَهَذَا بِنَاءٌ مِنْهَا عَلَى
جَوَازِ تَقْدِيمِ جَوَابِ الْقِسْمِ، وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ وَابْنُ مَالِكٍ: أَنَّ
جَوَابَ الْقِسْمِ مَحْذُوفٌ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ يَكُونُ: مَا الْأَمْرُ
كَمَا تَزْعُمُونَ، وَدَلٌّ عَلَى هَذَا الْمَحْذُوفِ قَوْلُهُ: ﴿بَلِ الَّذِينَ
كَفَرُوا﴾ وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: أَنَّهُ لِمَعْجَزٍ، وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: إِنَّكَ
لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَقَالَ نَظِيرُهُ: ﴿يَسَ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنَ الْكَلِيمَ
﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ .

www.MinhajBooks.com

١. ص، ٣٨: ٢

٢. يس، ٣٦: ١-٣

والمراد بكون القرآن ذي الذكر، أي ذي الشرف
لأنه قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾^١ وقال: ﴿وَهَذَا
ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾^٢ وقال القتيبي أيضاً في “التأويل”:^٣ ورد
“بل” لتدارك كلامٍ ونفي آخر، ومجاز الآية يكون: إن
الله أقسم بصاد والقرآن ذي الذكر، إن الذين كفروا من
أهل مكة في عزّة، وحمية جاهليّة، وتكبرٍ عن الحق، شقاق
خلاف وعداوةٍ لمحمدٍ ﷺ فأقسم الله تعالى بصديقٍ محمدٍ
ﷺ وشأنه وشرف القرآن ومكانته للرد على زعم الكفار،
وذكر زعمهم: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾^٣ فردّ الله
زعمهم وتعجبهم بقوله: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ
الْوَهَّابِ﴾^٤.

-
- www.MinhajBooks.com
١. الزخرف، ٤٣: ٤٤
 ٢. الأنبياء، ٢١: ٥٠
 ٣. ص، ٣٨: ٤
 ٤. ص، ٣٨: ٩

لما حكي عن الكفار في كونهم ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾^١
أَتَبَعَهُ بِشَرْحِ كَلِمَاتِهِمُ الْفَاسِدَةَ فَقَالَ: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ
مُنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾^٢ أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مُسَاوٍ لَّنَا فِي
الْخَلْقَةِ الظَّاهِرَةِ، وَالتَّسْبِ، وَالشَّكْلِ وَالصُّورَةِ الْبَشَرِيَّةِ،
فَكَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يُخْتَصَّ مِنْ بَيْنِنَا بِهَذَا الْمَنْصَبِ الْعَالِيِّ؟ وَهُوَ
يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالتَّرْغِيبِ فِي الْآخِرَةِ، وَقَوْلِهِ فِي
رَدِّهِمْ: ﴿أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾^٣ يَعْنِي مَفَاتِيحَ نِعْمَةِ
رَبِّكَ وَالنَّبُوَّةَ يَعْطُونَهَا مَنْ شَاءُوا وَلَمِنْ أَرَادُوا، وَنَظِيرُهُ:
﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾^٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْعَزِيزُ
الَّذِي لَهُ مَا يَشَاءُ لَمِنَ الشَّيْءِ، وَهُوَ الَّذِي لَهُ أَنْ يَهْبِ كُلَّ مَا يَشَاءُ، لَمِنَ الشَّيْءِ،
فَالنَّبُوَّةُ عَطِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، يَتَفَضَّلُ بِهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَلَا مَانِعَ لَهُ وَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ فَالْحَاصِلُ أَنَّ سِيَاقَ

١ ص، ٣٨: ٤

٢ ص، ٣٨: ٩

٣ الزخرف، ٤٣: ٣٢

الكلام أيضاً يقتضي بأن القسم هو لصدق نبوة محمد ﷺ ،
 فبدأ الله تعالى هذه السورة بالإقسام لعظمة النبوة وهي
 النبوة المحمدية ﷺ وختمها أيضاً بذكر عظمة النبوة وهي
 نبوة آدم عليه السلام وذكر في البداية رداً على الكفار والمشركين
 الذين كذبوا سيدنا محمداً ﷺ لشقاقهم وعداوتهم
 واستكبارهم له ﷺ وذكر في النهاية أيضاً رداً على إبليس
 الذي أنكر السجود لآدم واستكبر، فلذلك ﴿كَانَ مِنَ
 الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ فسأله عن إنكاره على التعظيم لنبوة آدم
عليه السلام بشكل السجود مشافهةً بقوله: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا
 مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ
 الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ
 ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ
 الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ
 مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ

لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ

١. ﴿٨٢﴾

وذكر الله تعالى في بداية السّورة تعجبهم بعد

الإقسام بصدق نبوة محمد ﷺ كما قالوا بقوله: ﴿وَعَجِبُوا

أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾^٢ وأجابهم الله تعالى في آخر السّورة

مرّة أخرى قبل ذكر السّجود لآدم عليه السلام وإنكار

إبليس بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾^٣ وقال تعالى: ﴿قُلْ

هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾^٤ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾

وقال أبو حيان في "البحر المحيط": "الضمير في قوله

تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ يعود على ما أخبر النبي ﷺ من

كونه رسولاً مُنْذِراً، داعياً إلى الله تعالى... وهو خيرٌ عظيمٌ

لا يُعْرِضُ عَنْ مِثْلِهِ إِلَّا غَافِلٌ شَدِيدُ الْغَفْلَةِ.

١. ص، ٣٨: ٧٥-٨٣

٢. ص، ٣٨: ٤

٣. ص، ٣٨: ٦٥

٤. ص، ٣٨: ٦٧-٦٨

وقال المراغي: والمعنى: أي قل لهم يا محمد (ﷺ):
 إن ما أنبأتكم به، من كوني رسولاً مُنذراً، ومن أن الله
 واحدٌ لا شريك له خبرٌ عظيم الفائدة لكم، فهو يُنقذكم مما
 أنتم فيه من الضلال، لكنكم معرضون عنه، لا تفكرون
 فيه، فذكر من الأدلة ما يرشد إلى النبوة وعظمتها ثم ذكر
 بعده بهذه المناسبة قصة الخلقِيةِ الآدميةِ وذكر خلقته
 البشريّة، وتَسْوِيَةَ ظاهرها وخلقته الباطنيّة والنّفخ في باطنها
 من رُوحه تعالى، فجعل البشريّة ظاهره والنورانيّة باطنه،
 وذكر في هذا المقام أمره بالسجود لآدم ﷺ تعظيماً
 للنبوة، فقال: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا
 إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ لإبائه وإستكباره
 عن أمر الله تعالى له بسجود آدم ﷺ تعظيماً للنبوة
 وتكريماً لها، بعد أن كان مُسْلِماً مُوحِداً عابِداً لله سبحانه
 مع الملائكة، نحو ثمانين ألف سنة، وطاف بالبيت أربعة

عشر ألف عام، لقد أخطأ الشيطان اللعين حيث خَصَّ
الفضلَ بما مِنْ جِهَةِ المادَّةِ والعنصرِ والصُّورةِ الظاهرةِ وزلَّ
عَمَّا هو مِنْ جِهَةِ الخالقِ الفاعلِ المعطي، كما أنبأ قوله
تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدِي^ط ١﴾ وما مِنْ جِهَةِ الباطنِ والسَّيرةِ
التَّورِيَّةِ. كما نبه عليه قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ
رُوحِي﴾^٢ وما مِنْ جِهَةِ المنزلةِ العلميَّةِ الرِّفِيعَةِ، كما قال
تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^٣ وما من جِهَةِ النُّبُوَّةِ،
وهي الخِلافةُ الإلهيَّةُ، كما أخبر بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي
الْأَرْضِ خَلِيفَةً^ط ٤﴾ ولذلك أمر الملائكة بسجوده، حين
ظهر لهم أَنَّهُ ﷺ أعلمُ منهم، وأفضلُ منهم، وأكرمُ منهم
وأكملُ منهم وأقربُ إليه منهم وأحبُّ إليه منهم، ولكن
الشَّيْطَانُ أَنْكَرَ واستكبرَ على عُلُوِّ النُّبُوَّةِ ورفعتها وعَظَمَتِهَا،

١. ص، ٣٨: ٧٥

٢. الحجر، ١٥: ٢٩

٣. البقرة، ٢: ٣١

٤. البقرة، ٢: ٣٠

فَأَبَعَدَهُ اللهُ تَعَالَى عَنْ رَحْمَتِهِ وَقَطَعَ عَنْهُ فَيْضَهُ وَتَوَفَّقَهُ وَجَعَلَهُ
مَلْعُونًا مَذْمُومًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَأَقْسَمَ الشَّيْطَانُ لِتَمَامِ
شَقَاوَتِهِ وَقَالَ: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾^١ أَي لَأُضِلَّنَّ ذُرِّيَّةَ آدَمَ فَمَعْنَاهُ:
أَي لَأَكُونَنَّ سَبَبًا لِعُغْوَايَتِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ بِإِدْخَالِ الشُّكُوكِ
وَالشَّبَهَاتِ فِيهِمْ، وَبِإِدْخَالِ فِكْرِ الْإِهَانَةِ وَالتَّنْقِصِ لِشَأْنِ
النَّبَوَّةِ فِي عَقَائِدِهِمْ، كَمَا وَقَعَ فِي أَمْرِ ضَلَالَتِي وَصَدَرَ فِي أَمْرِ
غُوَايَتِي. وَإِقْسَامُهُ كَانَ بِمَعْنَى: لَأَجْعَلَنَّهُمُ الْمُنْكَرِينَ،
وَالطَّاعِنِينَ، وَالشَّاكِّينَ، وَالتَّنْقِصِينَ فِي شَأْنِ النَّبَوَّةِ وَالرَّسَالَةِ،
وَالْمُسْتَكْبِرِينَ وَالْمُسْتَنْكَرِينَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ
السَّلَامُ عَنْ سَبِيلِ التَّشْكِيكِ وَالْإِرْتِيَابِ فِي مَكَانَتِهِمْ، وَعَنْ
طَرِيقِ التَّقَابُلِ وَالتَّسَاوِيِّ مَعَهُمْ، وَمَنْ اتَّبَعُونِي مِنْهُمْ فَهُمْ
يَتَوَجَّهُونَ وَيُرَكِّزُونَ إِلَى الصِّفَاتِ الْمُثَلِّيَّةِ وَالْبَشَرِيَّةِ فِي حَيَاةِ
الْأَنْبِيَاءِ وَيُنْصَرِفُونَ عَنْ أُمُورِ الْعِظَمَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْمُعْجِزَةِ

www.MinhajBooks.com

فيهم، ولذلك أقسم الله تعالى بعظمة النبوة في البداية
وجعل تنبيها نبيها في النهاية لتأمل المؤمنين وتفكر العالمين.

٧. وكذلك أقسم الله تعالى في قوله: ﴿وَقِيلِهِ يَرْبِّ إِنَّ

هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^١ فالقيل مصدر كالقول، قال

أبو عبيد يقال: قلت قولاً وقيلاً وقلاً، بمعنى واحد، جاءت

المصادر على هذه الأوزان، كما في النساء: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ

مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾^٢ أي قولاً. قرأ حمزة وعاصم بالجرِّ

(فانظروا في قراءات ﴿وَقِيلِهِ﴾: السبعة، والنشر، والبحر،

والحجة، والمحتسب، والتيسير والقرطي وغيرها). والبعض

بالنصب أو الرفع والضمير في ﴿وَقِيلِهِ﴾ راجع إلى النبي

كما صرح به قتادة رحمته وثبت بقول ابن عباس رحمتهما

ونافع رحمتهما وابن عامر رحمتهما وغيرهم. وأن الواو

حرف جرٍّ وقسم، والجار والمجرور متعلق بفعل قسم،

www.MinhajBooks.com

١. الزخرف، ٤٣ : ٨٨

٢. النساء، ٤ : ١٢٢

والجواب إمّا محذوفٌ تقديره: لَتَنْصَرْنَ أو لَأَفْعَلَنَّ بِهِم ما أريد، وإمّا مذكورٌ وهو قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كما ذكره الزمخشري، فمعناه: أَقْسِمُ قِيلَهُ أو بقيله ﴿٨٨﴾

أي بقول محمدٍ ﷺ: ﴿يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا قوله ﷺ شاكياً إلى ربّه تبارك وتعالى قومه الذين كذبوه وما لقي منهم شديد الأذى: يا رب، إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَمَرْتَنِي بِإِنذَارِهِمْ وَأَرْسَلْتَنِي إِلَيْهِمْ لِدَعَائِهِمْ إِلَيْكَ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ أَي لَا يَرِيدُونَ الْإِيمَانَ.

وكما روي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد رحمته الله في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: فأبر الله سبحانه قول محمدٍ ﷺ. وفي رواية أخرى قال مجاهد في قوله تعالى هذا: يؤثر الله سبحانه قول محمدٍ ﷺ كما ذكر الطبري والقرطبي وغيرهما.

www.MinhajBooks.com
وعن قتادة رحمته الله في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: هذا قول نبيكم عليه

الصلاة والسلام يشكو قومه إلى ربّه وفي تفسير الجلالين:
 ﴿وَقِيلَهُ﴾ أي قول محمد النبي ﷺ وفي تفسير البغوي:
 ﴿وَقِيلَهُ﴾ يعني قول محمد ﷺ شاكيا إلى ربّه وفي تفسير
 البحر المحيط أنه يجوز في إعراب ﴿قِيلَهُ﴾ الجر والنصب
 على إضمار حرف القسم وحذفه، والرفع على قولهم: أيمن
 الله، وأمانة الله، ويمين الله، ولعمر ك، ويكون قوله: ﴿إِنَّ
 هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، جواب القسم، كأنه قال:
 وأقسم بقيله، أو وقيله يا رب قسمني.

ثم خاطب الله تعالى النبي الحبيب المصطفى ﷺ
 تهديداً للمشركين ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عنهم
 وأمهلهم ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾. قال سيبويه: معناه: سلامٌ المتاركة،
 ويجوز أن يكون ﴿سَلَامٌ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوف، تقديرة:
 “قل لأعدائك أن أمري وشأني سلامةٌ من أذيتكم وبرائةٌ
 من ضاللتكم.” ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي سَوْفَ

تَعْلَمُونَ كَمَا قَرَأَ نَافِعُ وَابْنُ عَامِرٍ بَتَاءَ الْخَطَابِ التَّفَاتًا عَلَى
 أَنَّهُ مِنْ خَطَابِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْمَشْرِكِينَ بِالْتَهْدِيدِ، وَهُوَ وَعِيدٌ
 مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تَسْلِيَةً لِرَسُولِهِ وَحَبِيبِهِ ﷺ وَمَعْنَاهُ: سَوْفَ
 تَعْلَمُونَ: تَجِدُونَ عَقُوبَةَ مَا تَسْتَوْجِبُونَ وَهَلَاكَةَ مَا
 تَسْتَحِقُّونَ.

٩/٨. وَكَذَلِكَ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿ق- وَالْقُرْآنِ
 الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ
 هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رحمتهما: ﴿ق-
 هُوَ قَسَمٌ، لَمَّا أَقْسَمَ بِالْأَشْيَاءِ الْمَعْهُودَةِ ذَكَرَ حَرْفَ الْقَسَمِ
 وَهُوَ الْوَوِ كَمَا قَالَ ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾﴾، ﴿وَالنَّجْمِ﴾^٣،
 ﴿وَالشَّمْسِ﴾^٤ وَعِنْدَ الْقَسَمِ بِالْحُرُوفِ لَمْ يَذَكَرْ حَرْفَ
 الْقَسَمِ، فَلَمْ يَقُلْ: “وق” ، “وص” ، “وحم” “ون” لأن

١. ق، ٥٠: ١-٢

٢. الطور، ٥٢: ١

٣. النجم، ٥٣: ١

٤. الشمس، ٩١: ١

القسم لما كان بنفس الحروف كان الحرف مقسماً فلم يورده في موضع كونه آلة القسم تسويةً بين الحروف. ولذلك حُذِفَ حرف القسم وهو “الواو” في هذا المقام.

فإنَّ الله تعالى أقسم بقوله: ﴿قَ﴾ وأقسم أيضاً بقوله:

﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ جعل اللهُ النَّبِيَّ الحَبِيبَ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا

ﷺ مُقْسَمًا بِهِ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ: ﴿قَ﴾، وَمُقْسَمًا عَلَيْهِ

فِي الْقِسْمِ الثَّانِي: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾. قال ابن عطاء في

﴿قَ﴾: “أقسم اللهُ ﷻ بِقُوَّةِ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَيْثُ حَمَلَ

الخطاب والمشاهدة ولم يثر ذلك فيه لِعُلُوِّ حاله ﷺ.

رواه السُّلَمِيُّ والقرطبي. فأما القسمُ الثاني، فالقرآنُ مُقْسَمٌ

به فيه، فكيف نفهم ما المُقْسَمُ عليه، فالجواب: أنَّ المُقْسَمَ

عليه إمَّا يُفهم بقريئةٍ مقاليةٍ أو قريئةٍ حاليةٍ فيكون التقدير في

القريئةِ المقاليةِ “هذا: ﴿قَ﴾ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ أي

نُقْسَمُ بِالْقُرْآنِ الجيد هذا قلبُ مُحَمَّدٍ ﷺ الذي حمل كلامي

وخطابي بكمال قوته وعلُوِّ حاله. ” وأما القريئةُ الحالية،

فقال ابن الخطيب: هو كون محمد ﷺ على الحق فإن الكفار كانوا ينكرون ذلك ذكره القشيري والفخر الرازي والقرطبي وغيرهم وفي قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾^١ توجد دلالة صريحة واضحة وثيقة بأن النبي العظيم ﷺ هو المقسم عليه، فبذلك قال الأخفش: أقسم الله بالقرآن بأنك يا محمد، لني منذر، فيكون التقدير: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾^(٢) إِنَّكَ لَمُنْذِرٌ، وهذا جواب ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ لأنهم لم يكتفوا بالشك ولا بالرد حتى عجبوا وجزموا بالخلاف وجعلوا مجيئه ﷺ وبعثه ﷺ من الأمور العجيبة المستنكرة، فبين التكرار الصريح في التعجب والإنكار في قولهم كما ذكر بعد القسمين: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾^(٣) وهذا التكرار في ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ و ﴿شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ يدل على شدة إنكارهم بالرسالة الحمّدية ﷺ لأنه لا شك في هذا

الأمر “بِمَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ” فهذا المُنْذِرُ هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الذي جاءهم وصرّح القرآن في هذه الآية لماذا تعجبت الكفار، فَوَجْهُ تَعَجُّبِهِمْ كَانَ مَجِيئُهُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَعَثُهُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَأَنْتُمْ كَانُوا يَقُولُونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّنَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾﴾^١ و ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿٢٥﴾﴾^٢. وذلك إشارة إلى أنه كيف يجوز اختصاصه بهذه المنزلة الرفيعة مع اشتراكنا في البشرية ولوازمها، فهذا كان وجه استكبار إبليس، إذ أنكر أن يسجد لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ سَأَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَتَابِلِيسُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾^٣ فأجاب: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾^٤ وقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾^٥ فَإِنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا

١. القمر، ٥٤ : ٢٤

٢. يس، ٣٦ : ١٥

٣. الحجر، ١٥ : ٣٢

٤. الحجر، ١٥ : ٣٣

٥. الأعراف، ٧ : ١٢

يقولون مثله: ﴿أَبَشْرًا مِنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾^١ فذكر الله تعجبهم وإنكارهم واستكبارهم بقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾^٢ فتبين لنا أن سبب إنكارهم عن قبول الرّسالة كان للأمرين: الأوّل: البشريّة، والثاني: زعمهم للمثليّة، لأنهم كانوا يقولون: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾^٣ إنهم كانوا ينظرون إلى الظاهر ولا ينظرون في الباطن، كما قال الله تعالى في خلق آدم ﷺ: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾^٤ وأمر بعد هذا القول: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^٥ فإنّ الشيطان نظر إليه ولم ينظر فيه، فتردّد لأجل البشريّة التي كانت حالة ظاهرة ولم يتوجّه إلى الحالة الباطنة التي فضّلت بالروح الإلهية ونوّرت بالأنوار

١. القمر، ٥٤ : ٢٤

٢. ق، ٥٠ : ٢

٣. يس، ٣٦ : ١٥

٤. الحجر، ١٥ : ٢٨

٥. الحجر، ١٥ : ٢٩

الصَّمَدِيَّةُ فَأَمَّا الْمَلَائِكَةُ بَعْدَمَا نَظَرُوا مِنْ الظَّاهِرِ تَوَجَّهُوا إِلَى
الباطن لأنَّهم علموا وفهموا وعرفوا فضيلة النبوة على
غيرها ولم يتردّدوا في البشرية والمثليّة بسبب ظاهر لَوَازِمِهَا،
فهذا الشكّ والتردّد والارتياب كان سبباً لإنكار الكفار
وتعجّبهم على رسالة سيّدنا محمّد النبي المصطفى ﷺ فردّ
الله تعالى على هذا التّعجب بالقسمين: ﴿ق وَالْقُرْآنِ
الْمَجِيدِ ﴿١﴾ وَأَقَام بَرهَانًا تَامًّا عَلَى صِدْقِ نبوّته ورسالته
ﷺ فقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ يقتضي أن هناك أمرٌ مضروبٌ
عنه فما ذلك؟ فأجاب الواحدي ووافقه الزمخشري أنّه
تقديرٌ كأنه قال: ما الأمر كما تقولون وقال ابن الخطيب:
التقدير ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ إِنَّكَ لَمُنذِرٌ فَإِنْ شَكُوا
فيك يا محمّد، وعجبوا على مجيئك فإنّهم كاذبون لأنّ
الحقّ لا يُكذّب بل المكذّبون هم الكاذبون.

١٤/١٠. وكذلك أقسم الله تعالى في قوله: ﴿وَالطُّورِ ١﴾

وَكِتَابِ مَسْطُورٍ ٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤﴾

وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦﴾. ١

فالطور جبل سينين وهو سيد الجبال، وهو المكان الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام وقال القشيري

رحمته: أقسم الله به لأنه الموضع الذي سمع فيه موسى ذكر

محمد عليه السلام وذكر أمته عليهم السلام فأقول يحتمل أن يكون سبب

آخر لهذا القسم لأن النبي عليه السلام لما بدء السفر من المسجد

الحرام ليلة الإسراء انتقل إلى طور سيناء ونزل به قبل ذهابه

إلى المسجد الأقصى كما جاء في الحديث صحيحاً. عليه السلام

وفي القسم الثاني: ﴿وَكِتَابِ مَسْطُورٍ ٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ٣﴾

أقوالٌ وأرجح الأقوال هو “القرآن المجيد” لأنه كتاب أنزل

على سيدنا النبي محمد عليه السلام وهو أيضاً سيد الكتب. ثم

أقسم بسيد البيوت وهو البيت المعمور فالمشهور أنه البيت

في السّماء العليا تحت العرش بجبال الكعبة، حرّمته في
 السّماء كحرمة الكعبة في الأرض وهذا البيت الذي انتقل
 إليه النّبي الحبيب المصطفى ﷺ أيضاً ليلة الإسراء والمعراج
 كما ورد في الحديث الصحيح. وقيل هو البيت الحرام ولا
 ريب أنّ كلا منهما معمور، وهذا قبله النبي المصطفى ﷺ
 التي اختارها وحوّل وجهه إليه في الصّلاة فكل منهما سيّد
 البيوت فكل أحد من البيتين، منسوبٌ إلى الحبيب ﷺ.
 فأما الكعبة، فهي بداية سفره ﷺ في ليلة الإسراء والطور
 وبيت المقدس كانتا منزلتين من سفره الأرضي، والبيت
 المعمور كان أحداً من منازل في سفره السّماوي. وقوله:
 ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعني السّماء، هي كانت طريقه
 إلى الجنّة وسدرة المنتهى والعرش وآيات ربّه الكبرى حتّى
 وصل إلى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى
 ١ ﴿وَهُذِهِ كَانَتْ نَهَايَةَ سَفَرِهِ فِي الْمِعْرَاجِ كَمَا رَوَى

البخاريُّ عن أنسٍ رضي الله عنه: «وَدَنَا الْجَبَّارُ رَبُّ الْعِزَّةِ فَتَدَلَّى
 حَتَّى كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» وقوله: ﴿وَالْبَحْرِ
 الْمَسْجُورِ﴾ هو آية عظيمة من آيات ربه الكبرى وعجائب
 ليلة الإسراء التي رآها الحبيب المصطفى صلى الله عليه
 وآله وسلم هو البحر المملوء الذي تحت العرش، وبين أعلاه وأسفله مسيرة خمس
 مئة عامٍ كما روي عن النبي صلى الله عليه
 وآله وسلم عن طريق العباس بن عبد
 المطلب رضي الله عنهما وأخرجه أبو داود، وروي عن علي بن أبي
 طالب رضي الله عنه، فتضمَّن القَسَمُ في هذه السُّورَةِ خمسة أماكن
 وأشياء فلكلِّ أحدٍ منها نسبةٌ جليَّةٌ وعلاقةٌ لطيفةٌ بالنبيِّ
 الحبيب المصطفى صلى الله عليه
 وآله وسلم فجعل الله تعالى الأشياء المقدَّسة
 والأماكن المباركة مُقسَّماً بها ونبهه المكرَّم صلى الله عليه
 وآله وسلم مُقسَّماً
 عليه.

١٥. وكذلك أقسم الله تعالى به صلى الله عليه
 وآله وسلم بقوله: ﴿وَالنَّجْمِ

إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ

أَهْوَى ﴿٦﴾^١ وقال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:
النجم محمد صلوات الله وسلامته عليه ومعناه محمد صلوات الله وسلامته عليه ﴿إِذَا هَوَى ﴿٦﴾﴾: أي
إذا نزل من السماء ليلة المعراج. وقال أيضاً: النجم قلب
محمد صلوات الله وسلامته عليه وأقسم الله تعالى بقلبه صلوات الله وسلامته عليه إذا هوى أي انشرح
من الأنوار أو انقطع عن جميع ما سوى الله تعالى وما أعوج
عن طريق استقامته قطّ وقال تعالى بمعنى: ما ضلّ حبيبي
عني لحظةً وما احتجب عني بشيء لحظةً. وقال الإمام جعفر
الصادق عليه السلام: ما ضلّ عن قربه طرفة عين. وقال ابن
عطاء: ما ضلّ عن الرؤية طرفة عين. وقال سهل التستري:
ما ضلّ عن حقيقة التوحيد لحظةً. وقال الشبلي: ما رجع
عنا منذ وصل إلينا ويقال في الحبّ: "هَوِيَ" بالكسر
يهوى هويًا، معناه: نقسم بقلب محمد صلوات الله وسلامته عليه إذا اشتد فيه
حبه لله وما أضله هذا الحب عن الأدب إلى الغي.

www.MinhajBooks.com

١٦/١٨. وكذلك جعل الله تعالى نبيه ﷺ مُقْسَمًا عليه

بالأقسام في سورة القلم، فَأُقْسِمَ بقوله: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا

يَسْطُرُونَ﴾^١ فحاطب الله حبيبه ﷺ بعد القسمين: ﴿مَا

أَنْتَ﴾ أي يا محمد ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾^٢ انتهى

الجنون عنك بسبب إنعام ربك عليك بالتبوة وغيرها ورد

لقولهم هذا: إنه مجنون، كما قال السيوطي، وقال ابن زيد

في ﴿ت﴾: هو قَسَمٌ أقسم الله تعالى به، وروى معاوية بن

قرّة عن أبيه مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قال: «﴿ت﴾ لَوْحٌ

مِنْ نُورٍ». ورواه ابن كثير والقرطبي وغيرهما، وعن أبي

هريرة رحمته الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول ما

خلق الله القلم، ثم خلق النُّون وهي الدواة» وروى ابن

عباس رحمته الله والحسن البصريّ وعكرمة، وقتادة،

والضحّاك مثله، وأخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن

www.MinhajBooks.com

١. القلم، ٦٨ : ١

٢. القلم، ٦٨ : ٢

عساكر وغيرهم، وذكره ابن كثير، والقرطبي، والبغوي،
والرازي وغيرهم.

فأقسم الله بالقلم بأنه، كتب به على اللوح ما كان
وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة من جميع العلم، ثم
ختم فم القلم، فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيمة، كما
جاء في الخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما، ثم أقسم بسطر الملائكة
أو بمسطورهم فيحتمل أن يكون معناه: أي أقسم بالقلم
وبما يكتب به من الكتاب، وقال ابن عباس، ومجاهد،
وقتادة والسدي: ﴿مَا يَسْطُرُونَ﴾ يعني ما تكتب الملائكة من
عمل العباد وهم الحفظة الموكلون، وقال ابن أبي نجيح عن
مجاهد: والقلم يعني الذي كتب به الذكر، فأقول فلا مانع
للاحتمال في هذا المقام من أن يكون معنى الذكر، ذكر
حبيبه محمد صلى الله عليه وآله وصفة نبوته صلى الله عليه وآله كما ورد في جواب
القسم ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ
مَمْنُونٍ ﴿٢١﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٢٢﴾ فَسَتَبْصُرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦٨﴾ ١ فذَكَرَ مُقَسِّمًا عَلَيْهِ فِي خَمْسِ آيَاتٍ
وَرَدَّ الْكُفَّارَ وَالْمُعَانِدِينَ وَالْحَاسِدِينَ وَالطَّاعِنِينَ فِي شَأْنِ النَّبِيِّ
ﷺ أَشَدَّ رِدِّ وَنَفِيٍّ عَنْهُ اتِّهَامِ الْجُنُونِ الَّذِي كَانَ مِنْ قَبْلِ
الْكُفَّارِ الضَّالِّينَ الْمَفْتُونِينَ، وَقَالَ بِمَعْنَى: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ بَرِيءٌ
مِنْهُ، مُتَلَبِّسٌ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ مِنَ النَّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ وَالرِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ
وَالزَّكَاوَةِ التَّامَّةِ وَحِصَانَةِ الْعَقْلِ وَرِزَاةِ الرَّأْيِ وَالْفَهْمِ
وَجَلَالِ الْفَضْلِ وَالنِّعَمِ، وَأَنْوَاعِ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ وَالْجَوَامِعِ
مِنَ الْكَلِمِ وَالْحِكْمِ، وَالْمُرَادُ تَنْزِيهِهِ ﷺ عَمَّا كَانُوا
يُنْسِبُونَهُ إِلَيْهِ ﷺ مِنَ الْجُنُونِ حَسَدًا وَعَدَاوَةً وَمُكَابَرَةً، لِأَنَّ
الْجُنُونَ حَائِلٌ بَيْنَ النَّفْسِ وَالْعَقْلِ، وَكَذَا أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ
عَنْ ابْنِ جَرِيرٍ: إِنَّمَا قَالُوا اسْتَبْعَادًا مِنْهُمْ مَا ادَّعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ
مِنَ الرَّسَالَةِ مِنَ اللَّهِ وَمَا ارْتَكَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَخَالَفَةِ جَمِيعِ
النَّاسِ فِي أَيَّامِ الْعُسْرَةِ وَاسْتِيْلَاءِ ظُلْمَةِ الْكُفْرِ وَلَمَّا كَانَ هَذَا
الْاِسْتَبْعَادُ مِنْهُمْ مُسْتَقْرًا قَوِيًّا فِي زَعْمِهِمْ أَكْذَبُوا قَوْلَهُمْ إِنَّكَ

لمجنون بأن ولام القسم بناءً على شدة إنكارهم فأكد الله
تعالى الجواب بالأقسام وزيادة الباء في الخبر بتأكيد النفي،
وفيه نفي الجنون عنه صلى الله عليه وآله بحال تلبسه صلى الله عليه وآله بنعمة الله
ليكون هذا التأكيد مع قيد النعمة بمنزلة البينة والبرهان
على النفي والرد، فإنه من كان بهذه المثابة من العلم والعقل
والفهم والكمال في الخلق والطرق فالقول فيه بأنه مجنون
سفسطة، لا يقول به إلا من هو ضال ومفتون ومذهن
وكذاب ومهين، حقير، ذليل وهماز، عياب، طعان، ومشاء
نقال، قتات نيم، ومناع للخير ومعتد، متجاوز، أثيم،
وعتل، فظ، غليظ، جواظ، وزنيم، والزنيم هو ملحق
النسب الذي لا أصل له وهو ولد الزنا والفاحش واللئيم
كما ذكره ابن جرير، وابن كثير، والقرطبي، والبغوي،
والرازي، والخازن، والجمل وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما
ومجاهد، والضحاك، وسعيد بن المسيب، وعكرمة،
والحسن، وسعيد بن جبير، والثوري وغيره. وقال أبو حيان

في "البحر المحيط" قوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ قَسَمٌ أَيْضًا،
 واعترض به بين المحكوم عليه والحكم على سبيل التأكيد
 والتشديد والمبالغة في انتفاء الوصف الذميمة عن الحبيب
 ﷺ، وذهب إلى القسم أيضًا الشيخ نجم الدين في
 "تأويلاته" والمعنى، أي: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾
 ﴿٢﴾ قيل: النعمة هنا الرحمة، والآية ردُّ على الكفار حيث
 قالوا: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾
 ﴿٦﴾ فَمَعْنَى الآيَةِ: يا محمد! أقسم بنعمة ربك عليك،
 لست بمجنون، كما يقول الجهلة من قومك والمكذبون بما
 جنتهم به إليه من الهدى والحق المبين، فنسبوك فيه إلى
 الجنون، بل لك الأجر العظيم والثواب الجزيل، لا ينقطع
 ولا يبید وهو غير مقطوعٍ وغير محسوبٍ.

www.MinhajBooks.com

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^١ أن سعد ابن هِشام سأل عائشة رضي الله عنها عن خُلُقِ رسول الله صلوات الله والبركات. فقالت: أَلستَ تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فَإِنَّ خُلُقَ رسول الله صلوات الله والبركات كان القرآن. ورواه مسلم من حديث قتادة بطوله، وأحمد عن طريق الحسن، وعبد الرزاق، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم.

وروى ابن جرير الطبري عن الحسن، عن سعد بن هشام: قال أتيت عائشة أمّ المؤمنين فقلت لها: أخبريني بخُلُقِ النبي صلوات الله والبركات فقالت: كان خُلُقُهُ القرآن، أما تقرأ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

روى أبو داود، والنسائي، من حديث الحسن نحوه ثم قال: ﴿فَسْتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾^٢ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ أي: فستعلم يا محمد، وسيعلم مخالفوك ومكذّبوك من المفتون

١. القلم، ٦٨ : ٤

٢. القلم، ٦٨ : ٥، ٦

الضّالّ مِنْكَ وَمِنْهُمْ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا
مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُرِ﴾^١ وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ
لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^٢.

وقال ابن القيم: والمقسّم عليه بالقلم والكتابة
تنزيه نبيّه ورسوله ﷺ عما يقول فيه أعداؤه، وأنت إذا
طابقتَ بين هذا القسم والمقسم به (والمقسم عليه) وجدته
دالاً عليه أظهر دلالة وأبينها فإن ما سطر الكاتب بالقلم
من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا
تصدر عن مجنون، ولا تصدر إلا عن عقلٍ وافرٍ، فكيف
يصدر ما جاء به الرسول ﷺ من هذا الكتاب الذي هو
في أعلى درجات العلوم، بل العلوم التي تضمنها ليس في
قوى البشر الإتيان بها، ولا سيّما من أمّي لا يقرأ كتاباً ولا
يخطّ بيمينه، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة، سليماً من

www.MinhajBooks.com

١. القمر، ٥٤ : ٢٦

٢. سباء، ٣٤ : ٢٤

الاختلاف، بَرِيئاً مِنَ التناقض، يستحيلُ العقلاء كلهم لَوِ
اجتمعوا في صعيدٍ واحدٍ أن يأتوا بمثله، ولو كانوا في عقلٍ
رجلٍ واحدٍ منهم، فكيف يتأتى ذلك من مجنونٍ لا عقل له
يُمَيِّز به، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الإفك
والهذيان، فتأملوا شهادة هذا المُقسَمِ به للمُقسَمِ عليه
ودلالته عليه أتم دلالةً.

١٩. وكذلك أقسم الله تعالى في سورة الحاقّة بقوله:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ
رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا
بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ
﴿٤٣﴾﴾.

ورد في أوّل الآية ﴿فَلَا﴾ لظهور الأمر واستغنائه عن

التحقيق بالقسم، ويقال "لا" زائدة للتأكيد ومعناه أُقسِمُ،
أو المعنى: فليس الأمر كما تقولونه من أن محمداً ﷺ يقول

القرآن من نفسه وهو شاعرٌ أو كاهنٌ فأقسم الله تعالى عليه
وقال: ﴿إِنَّهُ﴾ يعني القرآن ﴿لَقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: أي
لتلاوة نبيٍّ مُرسَلٍ كريمٍ منّا إليكم، فأقسمَ الله عليه لِتَنْزِيهِهِ
وتكريمه: ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ قال
مقاتل: أقسم بما تُبْصِرُونَ من الخلق وما لا تبصرون منه،
وقال قتادة: أقسم بالأشياء كلها بما يُبصرُ منها وما لا يُبصرُ.

وقال الكلبي: تُبْصِرُونَ من شيء وما لا تبصرون من
شيء. وهذا أعمُّ قسم وقع في القرآن، فإنّه يعم العلويّات
والسفليّات والدنيا والآخرة، وما يُرى وما لا يُرى، ما
يدركه البصر والبصيرة من المظاهر والمعالي من أفعاله تعالى
وصفاته وما لا يدركه الأبصار والبصائر من مراتب
الصِّفَات والشُّيُونَات، من الأجسام والأرواح، أو الإنس
والجنّ والملائكة، والنعم الظاهرة والباطنة والعرش والكرسي
والسماوات السبع وما فيها وكل ذلك من آيات قدرته
وربوبيّته فيدخل فيه جميع المكوّنات والموجودات وما في

ظهر الأرض وما في بطنها ومن مكنون غيبه من الملكوت
والجبروت والنَّسُوت، فالتحقيق أنَّه تعالى أقسم بالكلِّ حتَّى
بذاته المقدَّسة، ما وقع به التجلِّي وما لم يقع، وما ظهر منها
في عالم الشهادة وما لم يظهر، وما يُعَلِّمُ بعلم اليقين، وما
يشاهد بعين اليقين وما يُحَقِّقُ بحقِّ اليقين.

وكذلك أقسم الله تعالى بظاهر كلِّ حقيقة وباطنها،
ثم ذكر سبحانه المُقَسِّمَ عليه وهو النَّبِيُّ الرَّسُولُ الوحيه
الكريم العظيم ﷺ، وقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤١﴾﴾
وهو محمد ﷺ ولا خلاف فيه وفي إضافته إلى الرِّسالة
دليلٌ واضحٌ أنَّه كلام المرسلِ ﷺ إلى رسوله الذي يُبَلِّغُهُ إلى
الناس عنه، وهو لا يقول عن نفسه، وأضافه إليه على معنى
التبليغ لأنَّ الرَّسُولَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَبْلُغَ عَنِ الْمُرْسَلِ.

فهو في غاية الكرم الذي يدلُّ على أفضليَّته وعدم
مثليَّته بشاعرٍ وكاهنٍ، فإضافة القرآن إلى الله تعالى لأنَّه هو
وحيه والمتكلِّم به، وإضافته إلى الرَّسُولِ ﷺ كما قال ﷺ:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ فمعناه هو الْمُبَلَّغُ إِلَيْهِ وَنُزِلَ عَلَى قَلْبِهِ وَأَوْحِيَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، ولهذا أَكَّده بقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾﴾ وإضافته إلى جبريل كما ورد في سورة التكوير، بمعنى أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ مِنَ السَّمَاءِ وَتَلَا عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ، ولكن أَظْهَرَهُ اللهُ تَعَالَى لِلخَلْقِ بِلِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ بِلَاغَةِ هَذِهِ الْآيَاتِ تَكَرَّرَ لَفْظُ الْقَوْلِ كَمَا وَرَدَ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴿٤١﴾﴾، ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴿٤٢﴾﴾ لِلْمَبَالِغَةِ فِي إِبْطَالِ أَقْوَالِهِمُ الْكَاذِبَةَ عَلَى الرَّسُولِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ الْحَقِّ الْمِينِ ﷺ. وَزِيَادَةَ ﴿مَا﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴿٤٣﴾﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ لِتَأْكِيدِ الْقَلَّةِ وَأَرَادَ بِالْقَلِيلِ نَفْيَ إِيمَانِهِمْ أَصْلًا، وَقَالَ الزَّمخَشَرِيُّ: وَالْقَلَّةُ فِي مَعْنَى الْعَدَمِ كَقَوْلِكَ: "لَنْ لَا يَزُورُكَ فَمَا تَأْتِينَا أَصْلًا" فَمَعْنَاهُ: "مَنْ لَا يَصَدِّقُكَ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ أَصْلًا" فَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ -

إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشِيرٌ مِّنْ شَيْءٍ^١ وَإِطْلَاقَ الْمَصْدَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾^٢ هذا لإفادة المبالغة، فأما لفظ القول فيه حكمة لطيفة بأن الله تعالى أضافه إلى الرسول بلفظ "القول" وأضافه إلى نفسه بلفظ "الكلام"، كما في قوله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾^٣ لأن الرسول يقول عن المرسل وهو الله ﷻ، كما قال المسيح: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾^٤ وأمر الله النبي ﷺ بقوله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^٥ وبقوله ﷻ: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^٦.

١. الأنعام، ٦ : ٩١

٢. الواقعة، ٥٦ : ٨٠

٣. التوبة، ٩ : ٦

٤. المائدة، ٥ : ١١٧

٥. الإحلاص، ١١٢ : ١

٦. الزمر، ٣٩ : ٥٣

وبقوله ﷺ: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^١ ﴿وَقُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^٢، ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾^٣ فإذا بلغَ الرَّسُولُ عنه صحَّ أن يُقال: “قال الرَّسُولُ كذا” أي قاله مُبلِّغاً عن مُرسِّله” و صحَّ أن يُقال ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾^٤ ولا يجوز أن يُقال “بكلامِ رسولِ كريمٍ” لأنَّ الله تعالى لا يتكلَّم مع عباده بلا واسطة ولا يخاطبهم مباشرة بل يخاطبُ نبيَّه أو رسوله ثم يقوم الرَّسُولُ أو النبيُّ بالخِطابِ والكلامِ نيابةً عنه ولذلك يُفهمُ قولُ الرَّسُولِ ﷺ قوله تعالى ومخاطبته ﷺ مخاطبة الله تعالى. وهذا ما أشار إليه ربُّنا في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِهِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآدَانِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ

١. إبراهيم، ١٤ : ٣١

٢. الإسراء، ١٧ : ٥٣

٣. النور، ٢٤ : ٣٠

حَكِيمٌ ﴿٥١﴾. ^١ يُؤَيِّدُ هَذَا الْأَمْرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ﴿١٦٤﴾. ^٢ وَلِذَلِكَ يَعْتَبَرُ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ وَالرَّسُولِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى، وَأَمْرُ الرَّسُولِ ﷺ وَأَمْرُهُ تَعَالَى، وَنَهْيُ الرَّسُولِ ﷺ وَنَهْيُهُ تَعَالَى، وَبَيَانُ الرَّسُولِ ﷺ وَبَيَانُهُ تَعَالَى، وَإِخْبَارُ الرَّسُولِ ﷺ وَإِخْبَارُهُ تَعَالَى، وَإِطَاعَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَإِطَاعَتُهُ تَعَالَى، وَمَعْصِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَمَعْصِيَتُهُ تَعَالَى، وَمَحَبَّةُ الرَّسُولِ ﷺ وَمَحَبَّتُهُ تَعَالَى، وَقُرْبَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَقُرْبَتُهُ تَعَالَى، وَتَعْظِيمُ الرَّسُولِ ﷺ وَتَعْظِيمُهُ تَعَالَى، وَتَوْقِيرُ الرَّسُولِ ﷺ وَتَوْقِيرُهُ تَعَالَى، وَتَقْوَاهُ تَعَالَى، وَتَنْقِيسُ الرَّسُولِ ﷺ وَإِهَانَتُهُ تَعَالَى، وَذِكْرُ الرَّسُولِ ﷺ وَذِكْرُهُ تَعَالَى، وَالصَّلَاةُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ دَعَاؤُهُ تَعَالَى، وَمَدْحُ الرَّسُولِ ﷺ حَمْدُهُ تَعَالَى.

وَلِذَلِكَ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِلَفْظِ: ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وَ «خُلِقَ عَظِيمًا»، فَكُلُّ آيَةٍ فِي ذِكْرِ الْمُقْسَمِ بِهِ وَالْمُقْسَمِ عَلَيْهِ

www.MinhajBooks.com

١. الشوري، ٤٢ : ٥١

٢. النساء، ٤ : ١٦٤

على انفرادها مُصَدِّقَه لِلنَّبِيِّ ﷺ وَمُعْظِمَةٌ لَهُ وَمُكْرَمَةٌ لَهُ
وَمُشْرِفَةٌ لَهُ ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق
تصديق، وتعظيم فوق تعظيم.

فتأملوا في نهاية التصديق والتعظيم للنبي ﷺ بعد
الأقسام المذكورة المتقدمة، إذ قال الله تعالى في شأنه ﷺ
في آخر السورة: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿١﴾﴾ ذكر الله تعالى
في كتابه المجيد مراتب اليقين وهي ثلاثة: فأول المراتب هو
علم اليقين، وفوقه المرتبة الوسطى عين اليقين، وفوقهما
المرتبة العظمى وهي المنتهى يقال لها: حقّ اليقين، وليست
مرتبة بعدها، ذكر الله المرتبتين لليقين في سورة التكاثر كما
قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿١﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ
﴿٢﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٣﴾﴾^٢ فيحصل علم اليقين
بالسمع وعين اليقين بالبصر، فالعلم بالمعينة والمشاهدة

www.MinhajBooks.com

١. الحاقة، ٦٩ : ٥١
٢. التكاثر، ١٠٢ : ٥ - ٧

أرفع وأثبت من العلم بالسَّماع والخبر، كما جاء في المسند للإمام أحمد مرفوعاً: «ليس الخبر كالمعاينة» ورواه أيضاً ابن حبان والبخاري والحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ورجاله ثقاتٌ. ولكنَّ حقَّ اليقين، هو علمٌ بالمباشرة وهي فوق المعاينة والمشاهدة، وهو حقُّ الحقِّ بالجزم والقطع ويزول بها كلُّ إمكان خطأ وريبٍ فَحَصَّصَ اللهُ تعالى هذه المرتبة للنبيِّ الحبيب المصطفى صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم والوحي الذي نُزِّلَ عليه في هذه السورة بقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾. فجعل اللهُ تعالى نبوته صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم، وإخباره، وتبشيره، وإنذاره حقَّ اليقين، وهذا آخر مراتب اليقين، الذي شرف به النبيُّ الأمين المكين صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم.

www.MinhajBooks.com

فختم الله تعالى السُّورَةَ بِالْخُطَابِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالرَّسُولِ ﷺ

مخاطبة ﷺ وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾^١ فجعل

الله تعالى نبيه ﷺ مخاطباً في هذه الآية وقال ابن عباس

حيث بينهما: معناه: فَصَلِّ لِرَبِّكَ وهذا كما قال تعالى: ﴿إِنَّا

أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَخَّرْ ﴿٢﴾﴾^٢ وقال الخازن:

أي نزهه ربك العظيم واشكره على أن جعلك حقّ اليقين.

٢٠/٢٣. وكذلك أقسم الله تعالى لحبيبه ﷺ بالشفقِ

وَاللَّيْلِ وَالْقَمَرِ فِي سُورَةِ الْإِنْشِقَاقِ وَجَعَلَهُ ﷺ مُقْسِماً عَلَيْهِ

فِي جَمِيعِ الْأَقْسَامِ، بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْشَّفَقِ ﴿٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا

وَسَقَ ﴿٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿٨﴾ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿٩﴾﴾^٣.

www.MinhajBooks.com

١. الحاقة، ٦٩: ٥٢

٢. الكوثر، ١٠٨: ١-٢

٣. الانشقاق، ٨٤: ١٦-١٩

فمعنى الأقسام: أي أقسم بالشفق وهي الحمرة التي تشاهد في أفق المغرب بعد سقوط الشمس أو البياض الذي يعقبها.

فأما الشفق الأبيض بعد الحمرة فرؤي هذا المعنى عن ابن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة، وعمر بن عبد العزيز، والأوزاعي، والإمام أبي حنيفة رحمته. وقال الراغب: الشفق هو اختلاط ضوء النهار بسواد الليل، قال الزمخشري والقرطبي سمي شفقاً لرقته ومنه الشفقة على الإنسان ورقة القلب عليه، قال الراغب: الإشفاق عناية لأن المشفق يحب المشفق عليه وأصل الكلمة من رقة الشيء، يقال شيء شفق، وأشفق عليه أي: رقق قلبه عليه، والشفقة: الاسم من الإشفاق وهو رقة القلب وكذلك الشفق، فكأن تلك الرقة من ضوء الشمس.

www.MinhajBooks.com

فلا إشكال أن تفهم منها إشارة إلى رقة قلب محمد

ﷺ لأمته ورحمته ورأفته عليها كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ

جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾^١

وفي الصَّحاح، الشَّفَق بقية ضوء الشَّمس، وقال
القرطبي مثله وقال أبو محمد البقلي الشيرازي: أقسم الله
سبحانه بما بقي من عكس أنوار شمس جماله تعالى على أفق
قلوب المحبِّين والعارفين، فأقول: إنَّ النَّبي ﷺ هو إمام
المحبِّين والعارفين، وقلبه ﷺ أعلى وأقرب، وأحقَّ من
العرش لنزول أنوار شمس الألوهية، وأنوار الرَّحمة والرَّأفة
الإلهية، الَّتِي جعلت قلبه مصدر الشَّفَقَة، والرَّحمة للمؤمنين
وللعالمين بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^٢

ثم أقسم بقوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾^٣ قال الرَّاعِب
وغيره من أئمَّة اللغة: الوسط جمع المتفرق أي جمع وضمّ

١. التوبة، ٩: ١٢٨

٢. الأنبياء، ٢١: ١٠٧

ولفّ فالمراد: أقسم بالليل وبما جمع وضمّ كما ذكره
القشيري. وأخرج الطبري عن عكرمة معني ﴿وَمَا وَسَقَ﴾
أي ما من شيء إلا وهو يذهب إلى حيث يأوي فمعناه: ما
يجتمع بالليل ويأوي إلى مكانه من الدواب والحشرات
والهوام والسباع لأنه أقبل كل شيء بالليل إلى مأواه مما
كان منتشرًا بالنهار، ولذلك قيل: يجوز أن يكون المراد بما
جمعه الليل: العباد المجتهدين الصّالحين بالليل لأنه تعالى قد
مدح المستغفرين بالأسحار، ويؤيد هذا المعنى قول ابن
جبير. ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ ٤ أي: وما عمل فيه من التهجد
والاستغفار بالأسحار، أخرجه الإمام البغوي والقرطبي
وغيرهما وقال عكرمة رحمته أيضًا ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ ٤ إذا
كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه، ذكره ابن كثير
والقرطبي والرازي وغيرهم. وقال ابن عباس رحمته ومجاهد
والحسن وقتادة أيضًا: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ أي: وما جمع، ونقل
البغوي عن سعيد ابن جبير: ما عمل فيه. وقال الخازن:

ويحتمل أن يكون ذلك تمجّد العباد، فيجوز أن يقسم به، فأقول فمن كان أكمل تمجّداً وأحسن عبادةً وأجمل عملاً بالليل من رسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٦﴾﴾. ١ لأن الله تعالى مكّنه على المقام المحمود أجراً وثواباً لتهجّده بالليل كما أمره ﷺ في القرآن.

وقوله: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ أي تمّ واجتمع، واستوى، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومسروق وأبو صالح والضحاك وابن زيد، وقال الحسن: إذا اجتمع إذا امتلأ ومعنى كلامهم: إنّه إذا تكامل نوره وأدبر، فجعل مقابلاً ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾ وقال البعض: جمع الله تعالى فيها أحوالاً متقابلاً وصحّ عن مجاهد أنّه قال في هذه الآية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾ هو النهار كله وفي رواية عنه أيضاً: أنّه قال: الشَّفَقُ: الشمس، رواهما

ابن أبي حاتم وابن جرير، وإنما حملة، على هذا قرنه بقوله
تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ ١٧ أي جمع كأنه أقسم بالضياء
والظلام، وقال ابن جرير: أقسم الله بالنهار مدبراً وبالليل
مقبلاً وهكذا بالقمر إذا استوي وتكامل وامتلاء، ذكره ابن
كثير، وقال القشيري: الشفق حين غربت شمس وصالحهم
وأذيقوا الفراق في بعض أحوالهم وذلك زمان قبض بعد
بسطٍ وأوانُ فرقٍ عُقب جمع ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ ١٧ ليالي
غيبتهم وهم بوصف الاستيقاق (من ساق) أو ليالي وصالحهم
في روح التلاقي أو ليالي طلبهم وهم بنعت القلب
والاحتراق ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ ١٨ إذا أظهر سلطان العرفان
على القلوب فلا بنحس ولا نقصان، وقال القرطبي: "وأصله
من سورة السلطان، وغضبه فلولا أنه خرج إلى العباد من
باب الرحمة ما تمالك العباد لحيثه. ولكن خرج من باب
الرحمة فمزج بها فسكن الخلق إليه ثم أبذعروا والتفؤوا
وانقبضوا ورجع كلُّ إلى مأواه، فسكن فيه من هوله."

ففي هذه الآيات أقسم الله تعالى بتغيّر أحوال الليل والنهار
 وبتغيّر أحوال الشّمس والقمر، وذكر بعدها جواب القسم:
 ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ ﴿١٦﴾ وقرأ عمر، وعبد الله بن
 مسعود، وابن عباس ومجاهد، وأبو العالية، وأبو عمر،
 ومسروق وسعيد بن جبیر، وأبو وائل والشعبي، وطلحة،
 وعيسى، والأسود، والنخعي، والأخوان: حمزة، والكسائي،
 وابن كثير، ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ بفتح الباء على الخطاب للواحد،
 وقال الحافظ ابن كثير إضافة: هذا قراءة عامة أهل مكة
 والكوفة أيضًا بفتح التاء والياء. أي ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ يا محمد،
 سماءً بعد سماءٍ يعني ليلة الإسراء، رواه ابن أبي حاتم عن
 الشعبي، هكذا روي عن ابن مسعود، ومسروق وأبي
 العالية: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ ﴿١٦﴾ أي سماءً بعد سماءٍ قال الحافظ
 ابن كثير: قلت: يعنون ليلة الإسراء.

www.MinhajBooks.com

روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس

حولهما في قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ ﴿١٦﴾ حالا بعد

حالٍ قال: هذا نبيكم وهو محتمل أن يكون ابن عباس
رحمتهما أسند هذا التفسير عن النبي ﷺ كأنه قال: سمعت
هذا من نبيكم ﷺ، فيكون قوله: “نبيكم” مرفوعاً على
الفاعلية من “قال” وهو الأظهر والله أعلم هكذا قال ابن
كثير وذكره الخازن ولفظه: هذا لنبيكم وروى ابن جرير
الطبري عن مجاهد، أن ابن عباس رحمتهما كان يقول:
﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ يعني نبيكم، يقول حالاً بعد
حالٍ.

وروى أبو داود الطيالسي عن سعيد بن جبير عن
ابن عباس رحمتهما ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قال: محمد
رحمتهما وروى البزار عن ابن مسعود رحمه الله عنه: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا
عَن طَبَقٍ﴾: يا محمد! لتركبَنَّ حالاً بعد حال، وقال ابن
جرير: لتركبَنَّ أنت يا محمد، حالاً بعد حال وأمرًا بعد أمر
وقيل: دَرَجَةٌ بعد دَرَجَةٍ ورُتْبَةٌ بعد رُتْبَةٍ في القرب من الله
تعالى، وقال الخازن: قد فعل الله ذلك معه ليلة أسرى به،

فأصعده سماءً بعد سماءٍ وقيل درجةً بعد درجةٍ ورتبةً بعد رتبةٍ في القرب من الله تعالى، فأقول فأَيُّه قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾﴾ وفسّرت هذه الآية بحديث أنس بن مالك الذي رواه البخاري في صحيحه: «ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب أو قوسين أو أدنى» وقيل: معنى هذا يكون لك الظفر والغلبة على المشركين حتى يختم لك بجميل العاقبة فلا يحزنك تكذيبهم وتماديهم في كفرهم ذكره الخازن. هكذا كان تعيّر الأحوال وتقلّب الدرجات ارتقاءً للنبي ﷺ رتبةً بعد رتبةٍ وحالةً بعد حالةٍ في حياته وجهاداته وشدائد حالاته وفتوحاته كغزوة بدرٍ وأحدٍ والأحزاب والمراجعة من الحديبية، وفتح خيبر ومكة، وحنين وغيرها إلى أن حصل له الغلبة والتّمكّن على جميع قبائل اليهود والمشركين، وقبائل العرب وبلادها وخارج العرب من

قريب وبعيد حتى تنور شمسه وانتشرت ضياؤها واستوى
بدره وتكامل وامتأ وأضاء به البلاد كلها وهكذا كمل الله
له معنى قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ

الْمُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣١﴾

والمعنى الآخر: أي لتركن أحوال أيامك يا
حبيبي، حالا بعد حال فهذه حال البعثة، ثم حال الدعوة
ثم حال الشدائد، ثم حال الهجرة، ثم حال المخالفة، ثم حال
الجهاد، وفتح البلاد، ثم حال دخول مكة فاتحاً وتوديع
العباد، ثم حال الرحيل إلى دار المعاد، ثم حال الشفاعة
والكرامة يوم القيامة ثم البعث على المقام المحمود، ثم حال
المقام في دار الخلود والقيام، فالطبّق في اللغة يطلق على
الحال، ويطلق أيضاً الطبّق على الجيل من الناس يكون طباق
الأرض وهو التنقل من صلب إلى صلب، أي: ملاءها ومنه
قول سيّدنا العباس بن عبد المطلب في النبيّ ﷺ:

تنقل من صالبٍ إلى رحمٍ

إذا مضى عالمٌ بدأ طَبَقٌ

وهذه إشارة في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ



وقال ابن القيم: من قال الخطاب للنبي ﷺ فله

ثلاث معانٍ:

الأوّل: لتركبنّ سماءً بعد سماءٍ حتّى تنتهي إلى حيث يُصعدك الله.

والثاني: لتصعدنّ درجةً بعد درجةٍ، ومنزلةً بعد منزلةٍ ورتبةً بعد رتبةٍ. حتّى تنتهي إلى محلّ القُرب والزُلفي من الله.

والثالث: لتركبنّ حالاً بعد حالٍ من الأحوال

المختلفة التي نقل الله فيها رسوله ﷺ من الهجرة، والجهاد،

ونصره على عدوّه، ومكر العدوّ به تارةً، وردّه إيّاه تارةً،
وغناه وفقره، وغير ذلك من حالاته الّتي تنقلُ فيها إلى أن
بلغ ما بلغه إيّاهُ.

٢٤/٢٧. وكذلك أقسم الله تعالى في سورة البروج بقوله:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝﴾

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝﴾ هذا قسم أقسم

الله تعالى بالسّماء ووصفها بذات البروج، وفيها أقوال:
أحدها: ذات النّجوم، والثّاني: الخلق الحسن، والثالث: ذات
المنازل، وهي القصور. قال ابن عباس وعكرمة
والضحّاك، والحسن، وقتادة، والسّدي، ويحيى بن رافع،
والمنهال بن عمرو، ومجاهد: “البروج: قصور في السّماء”
رواه الطبري، والقرطبي، وابن كثير. وقال مجاهد: هي

البروج الاثنا عشر، وهو قول أبي عبيدة ويحيى بن سلام،
كما ذكره الماورديّ والقرطبي في تفسيرهما.

وقال القشيريّ: أراد البروج الاثني عشر المعروفة
وهي القصور في السّماء، وذلك في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ
الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا
﴾^١.

واختار ابن جرير: أنّها منازل الشمس والقمر وهي
اثنا عشر برجًا، كما ذكر الحافظ ابن كثير، وقال
البيضاوي: البروج الاثنا عشر، شُبِّهت بالقصور، لأنّها
تنزلها السيّارات، كما أنّ القصور ينزلها الأكابر
والأشراف، سمّيت تلك الطرق بروجًا لظهورها لأن أصل
معنى البرج: الأمر الظاهر ومنه البرج، ويقال: تبرّجت المرأة
أي: تشبّعت بالبرج في إظهار المحاسن، فإذا نرى في معنى
السّماء وهو العُلُوّ، وفي معنى البروج وهو الظهور، وفي

عددها وهو اثنا عشر، فلا بأس أن تُستفاد مِنْ جمعها، أن يجوز احتمال الإشارة فيها إلى ولادة سيّدنا محمد ﷺ بمكة وظهوره ﷺ وهجرته ﷺ وقدمه ﷺ بالمدينة ووفاته ﷺ ووصاله ﷺ ولقائه ﷺ مع الرفيق الأعلى، فكلُّ أمرٍ منها له مكانةٌ وعُلُوٌّ وظهورٌ، ووقع كلُّ أحدٍ مِنْ هذه الأمور في اثني عشر مِنْ شهر الرّبيع الأوّل، فهذه نسبة لطيفة خفيّة لأهل الذوق والوجدان لو يعرفون.

وقال أبو محمّد البقلي الشيرازي: السّماء ذات البروج سماء قلوب العارفين، ذات الأبراج من العلوم والحِكَم والحقائق تسرى فيها كواكب العقول ونجوم الأرواح، وقال الشّيخ الأكبر محي الدين ابن العربي: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أي الرّوح الإنساني ذات المقامات في الترقّي والدرجات، فأقول فأيّ قلب أعلى في السّموّ والعلوّ، ذي الأبراج مِنَ العالم والمعارف والحِكَم من قلبه الشريف لأنّ الله تعالى جعل قلبه أولى مِنَ العرش وما

فوقه لمعرفة ونزول حكمته عليه وجعل رُوحَهُ ﷺ أقرب
إليه لِسِرِّهِ وظهورِ حقيقته عليه وجعل وجوده ﷺ أكمل
وجود مَظْهَرِيَّتِهِ في الذَّاتِ والصِّفَاتِ، وجعل ظهوره ﷺ
أحسن ظهورٍ لِجَمَالِهِ وكمالِهِ في الموجودات والكائنات.

ثم أقسم بقوله: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ بيوم القيامة
وهو يوم الفصل والجزاء الذي وعد الله به على السنة جميع
الرّسل والأنبياء، قد روي عن أبي هريرة وأبي مالك
الأشعري رضي الله عنهما وغيرهما: اليوم الموعود يوم القيامة وكذلك
قال الحسن وقتادة وابن زيد وغيرهم ولا خلاف فيه. ثم
أقسم الله تعالى في قوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ وفيه أقوال،
أرجحها وأثبتها: أن الشاهد محمد ﷺ والمشهود يوم
القيامة.

روى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: الشاهد

هو محمد صلوات الله عليه وآله والمشهود يوم القيامة ثم قرأ: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ
مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾^١.

وروى الطبري سأل رجل الحسن بن علي رضي الله عنهما

عن ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾^٢ قال: سألت أحداً قبلي؟ قال:

نعم، سألت ابن عمر وابن الزبير، فقالوا: يوم الذبح ويوم

الجمعة، فقال: لا، ولكن الشاهد محمد صلوات الله عليه وآله ثم قرأ:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ

شَهِيدًا﴾^٢ والمشهود يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ

مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾^١ هكذا قال الحسن

البصري وسعيد بن المسيّب، وسفيان الثوري، ومجاهد،

وعكرمة والضحاك، ورؤي هذا عن الحسين بن علي

رضي الله عنهما أيضاً قرأ الإمام الحسين: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

www.MinhajBooks.com

١. هود، ١١ : ١٠٣

٢. النساء، ٤ : ٤١

شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾^١ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الشاهد محمد صلوات الله وسلامته عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا﴾^٢ وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^٣ وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^٤ أخرجه الطبري في تفسيره والبخاري في المسند والهيثمي في "الجمع" وقال: رجاله ثقات.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: المشهود يوم الجمعة، وعن عكرمة أيضاً: الشاهد محمد صلوات الله وسلامته عليه والمشهود يوم الجمعة، روى ابن ماجه بإسنادٍ صحيح عن أبي الدرداء مرفوعاً عن النبي صلوات الله وسلامته عليه قال: «أكثرُوا الصَّلَاةَ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَإِنَّهُ مَشْهُودٌ، تَشْهَدُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَإِنَّ أَحَدًا لَنْ يَصْلِيَ عَلَيَّ إِلَّا عُرِضَتْ عَلَيَّ صَلَاتُهُ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهَا» قال: قلت:

-
- www.MinhajBooks.com
١. الاحزاب، ٣٣: ٤٥
 ٢. الأحزاب، ٣٣: ٤٥
 ٣. البقرة، ٢: ١٤٣
 ٤. النساء، ٤: ٤١

وبعد الموت؟ قال ﷺ: «وبعد الموت، إنّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، فبيّ الله حيّ يُرزقُ» وأخرجه الطبري أيضاً، ونقله الحافظ ابن كثير، والقرطبي، والرازي وغيرهم وروى أبو داود، والنسائي، وابن ماجه في سننهم عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلّق آدم، وفيه قبض، وفيه النّفخةُ وفيه الصّعةُ، فأكثروا عليّ من الصّلاة فيه، فإنّ صلاتكم معروضة عليّ» وقال: قالوا: يا رسول الله! وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت — يقولون: بليت؟ فقال ﷺ: «إنّ الله حجّل حرم على الأرض أجساد الأنبياء». واستدل من الحديث بأنّ المشهود يوم الجمعة والشاهد سيّدنا محمّد النّبّي المصطفى ﷺ لأنّه تُعرض أعمالنا وصلواتنا عليه كل يوم الجمعة وهو

يشهدا، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^١.

وذكر البغوي: وقيل الشاهد: الأنبياء والمشهود:

محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُءَ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ؕ قَالُوا ءَأَقْرَرْنَا ؕ قَالَ فَاشْهَدُوا ؕ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾^٢ لأن الأنبياء قبله شهدوا له ﷺ

بالنبوة، نقله الخازن والمظهري وغيرهم. وذكر الخازن:

وقيل الشاهد: هذه الأمة ونبينا ﷺ والمشهود سائر الأمم المتقدمة، بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا

www.MinhajBooks.com

١. البقرة، ٢: ١٤٣

٢. آل عمران، ٣: ٨١

لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ
شَهِيدًا ۗ

وروى البغوي معنى آخر: أن الشاهد: محمد ﷺ،
والمشهدود: الله ﷻ ويقال: الشاهد: محمد ﷺ، والمشهدود:
هذه الأمة، لأنه ﷺ يشهد لهم وعليهم وقيل الشاهد: أمة
محمد والمشهدود: سائر الأمم هكذا، ذكرها القشيري، فتبين
لنا بهذه الآيات والأحاديث والآثار والأقوال كلها بأن الله
تعالى أقسم بشاهديّة محمد ﷺ وبمشهدويّته ﷺ وشرفه
ﷺ بشؤون عجيبة عظيمة شاملة فحصل لنا خلاصة
الأقوال بأنه ﷺ هو الشاهد والمشهدود والناظر، والمنظور،
والطالب، والمطلوب، والمحبّ، والمحبوب، والقاصد،
والمقصود، وهناك أمر آخر وهو: الشاهد من الشهود إما
بالبصر أو بالبصيرة فمعنى الشهود، الحضور بالمشاهدة
والشاهد هو الحاضر، فحكم الحضور بمعنى الشهود،

فلذلك قال الملا علي القاري في "شرح الشفا": "وفيه
تَنْبِيهِ نَبِيهِ بِأَنَّهُ ﷺ حاضر ناظر في ذلك العرض الأكبر لأنه
سيكون فيه شاهداً ويوم العرض الأكبر سيكون مشهوداً،
وكذلك هو شاهدٌ علينا في الحياة الدنيا لأنه تعرض عليه
أعمالنا وأحوالنا صباحاً ومساءً. فأما الحقيقة المحمدية ﷺ
وروحانيته ﷺ وأنوار نبوته ﷺ وفيوضات رحمته ﷺ
وبركات شهاديته ﷺ لا يخلو منها زمانٌ ولا إمكان، ولا
محل ولا مكان، ولا عرش ولا كرسي، ولا لوح ولا قلم،
ولا بر ولا بحر، ولا سهل ولا وعر، ولا برزخ ولا قبر،
فامتلاء الكون الأعلى بها كامتلاء الكون الأسفل بها، فتجده
ﷺ مقيماً في قبره ﷺ بالجسد، وقائماً بين يدي ربّه
لأداء الخدمة وتام الانبساط بإقامته في درجة الوسيلة وترى
الرائين له يقظةً ومناماً في أقصى المغرب إلى أقصى المشرق
وشأنه ﷺ كما قال القائل: "ليس على الله بمستنكر، أن
يجمع العالم في واحدٍ." وهذا كما ذكر الحلبي صاحب

السيرة في رسالته: فجمع الله تعالى فيه ﷺ العالمين كلّها
لأنه تعالى جعله ﷺ رحمةً للعالمين وللعالمين نذيراً وسراجاً
منيراً. فأما شاهدة النبي ﷺ لها شأنان: الشاهدة بالبصر
والشاهدة بالبصيرة. وهذا معلوم محقق عند أهل العلم أنه
كان يرى من خلفه كما كان يرى أمامه، فكان يرى
خشوع الصحابة كما كان يرى ركوعهم، وكان يرى في
الظلمة كما كان يرى في الضياء، وكان يرى في الليل كما
كان يرى في النهار، وكان يرى من بعيدٍ كما كان يرى
من قريبٍ، وكان يرى الحبشة من المدينة كما كان يرى
الثريا بمكة في مهده ﷺ، وكان يرى الحوض والمحشر
والجنة والنار كما كان يرى المشارق والمغارب وأسفار
الصحابة في البحار، ولذلك أمر النبي ﷺ أصحابه: «إني
أرى من خلفي كما أرى من بين يدي، فأقيموا صفوفكم
وأحسنوا ركوعكم وسجودكم». لأنّ روحه ﷺ أقوى
الأرواح فإنّها لم يحجب عنها شيء من العالم فهي مطلعة

على عرشه تعالى وعلوه وسفله ودنياه وآخرته لأن جميع ذلك خُلِقَ لأجله فإنه جُعِلَ شاهداً على كل شيءٍ وجُعِلَ له كلُّ شيءٍ مشهوداً.

٢٨/٢٩. وكذلك أقسم الله تعالى بقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ

وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾

قال الراغب: عبّر عن النجم بالطارق لاختصاص ظهوره

بالليل، فالطارق في الأصل اسم فاعل من طرق طرقاً

وطروقاً ويقال لكل من أتاك ليلاً فهو طارق وفي

الصّحاح: الطّارق النّجم الذي يقال له كوكب الصّبح.

قال القشيري: أقسم بالسماء وبالنجم الذي يطرق ليلاً ثم

بين الله تعالى بعد القسم ما هو الطارق تفخيماً لشأنه بعد

تعظيمه بالإقسام به بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾ هذا

الاستفهام يراد منه التفخيم بعد التعظيم لهذا النجم، فقيل:

هو النجم الثاقب. قال أبو السعود: وهذا تنويه بشأنه

وتفخيمه بالإقسام به وتنبيه على أن رفعة قدره بحيث لا
ينالها إدراك الخلق فلا بدّ من تلقيها من الخلاق العليم لهذا
النّجم العظيم. ويقال: ثَقَبَ يَثْقُبُ ثَقُوبًا وثقابة: إذا أضاء،
وثقوبه: ضوءه، فمعناه: “الكوكب المضيء” فقد قال الله
سبحانه: “أي لا أقسم بكل طارق من الكواكب بل أقسم
بطارق معيّن وهو النّجم الثّاقب الذي يثقب الظلام ويهدى
به كلّ مسافر في ظلمات البرّ والبحر” ولذلك قال
القشيري: ﴿النّجْمُ الثّاقِبُ﴾ هو “النّجم المضيء
العالي” وهو نجم المعرفة الذي يدلّ على التّوحيد ويستضيء
بنوره ويهتدي به أولو البصائر، وذكر القاضي عياض عن
السّلمي: قال: إنّ النّجم هنا محمد صلّى الله عليه وآله، وقال سهل: إنّ
الطارق ما طرّق على قلب محمد صلّى الله عليه وآله من زوائد البيان
والإنعام وفيه إشارة إلى علوّ منزلة النّبي صلّى الله عليه وآله مع ضوء
نبوّته صلّى الله عليه وآله ونور رسالته صلّى الله عليه وآله لأن المعنى الآخر للثاقب:
العالي، يقال: ثَقَبَ الطّائرُ إذا علا في الهواء، وأسف: إذا دنا

من الأرض فإنّ الثاقب تجتمع فيه خصلتان: كمال العلوّ
 وشدّة الإضاءة، ويقال من المجاز: كوكب ثاقب: “درّي
 شديد الإضاءة والتألّؤ” كأنّه يثقب بالظلمة فينفذ فيها
 ويدروها، ويقال: ثَقَبَتِ النَّارُ ثُقُوبًا: إذا اتَّقَدت واشتعلت،
 وَثَقَبَ النَّجْمُ “إِذَا أَضَاءَ ضِيَاءً شَدِيدًا.” ولا شكّ في
 الرّسالة المحمّدية ﷺ اجتمعت فيها خصلتان: كمال العلوّ
 كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ أَلْرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
 مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾^١ وبقوله: ﴿وَإِنَّكَ
 لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^٢ وبقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ
 عَظِيمًا﴾^٣ وشدّة الإضاءة كما سمّاه الله تعالى نوراً
 وسراجاً منيراً بقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
 مُبِينٌ﴾^٤ وبقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا

-
- www.MinhajBooks.com
١. البقرة، ٢: ٢٥٣
 ٢. القلم، ٦٨: ٤
 ٣. النساء، ٤: ١١٣
 ٤. المائدة، ٥: ١٥

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا

﴿٤٦﴾^١ فَإِنَّ النَّجْمَ مُحَمَّدِي ﷺ طَلَعَ فِي وَقْتِ ذَهَابِ اللَّيْلِ

وَبَدَأَ الصَّبْحَ فَجَمَعَ اللَّهُ فِي مَوْلَدِهِ ﷺ شَأْنَيْنِ لَازِمَيْنِ

فَلِذَلِكَ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ ﷺ، وَبِالطَّارِقِ وَعَيْنِهِ ﷺ بِالنَّجْمِ

الثَّاقِبِ، فَاقْسَمَ أَوْلًا بِمَا يَشْتَرِكُ فِيهِ هُوَ وَغَيْرُهُ وَهُوَ

الطَّارِقُ. ثُمَّ سَأَلَ عَنْهُ بِالِاسْتِفْهَامِ تَفْخِيمًا وَتَعْظِيمًا لَهُ ﷺ

وَعَيْنِهِ ﷺ وَفَسَّرَهُ ﷺ بِالنَّجْمِ الثَّاقِبِ لِإِزَالَةِ الْإِبْهَامِ مِنْ

فَهْمِ الْعَوَامِ وَجَعَلَ هَذَا الْاِخْتِصَاصَ إِكْمَالًا وَإِتْمَامًا فِي الْإِنْعَامِ

عَلَى خَيْرِ الْأَنْامِ الَّذِي أَخْرَجَ الْخَلْقَ إِلَى النُّورِ مِنَ

الظُّلَامِ.

٣٠/٣٣. وَكَذَلِكَ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ﷺ بِقَوْلِهِ:

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾^٢ قَالَ ابْنُ

عَطَاءٍ: إِنَّ الْفَجْرَ مُحَمَّدٌ ﷺ لِأَنَّ مِنْهُ ﷺ تَفَجَّرَ الْإِيمَانُ،

www.MinhajBooks.com

١. الأحزاب، ٣٣: ٤٥-٤٦

٢. الفجر، ٨٩: ١-٣

والفجر صبح النهار وأوّل وقت ظهور ضوء الشّمس
وانقضاء اللّيل وهذا الوقت الذي ينشقّ فيه النّور وينفتح
للضياء والظهور وغابت ظلّم اللّيلي وقال سهل التستري:

“الفَجْرِ» الذي أقسم الله به هو محمد صلّى الله عليه وآله منه تفجّرت
الأنوار” و «لَيَالٍ عَشْرٍ» هو العشرة المبشّرة من أصحابه
صلّى الله عليه وآله الذين حَكَمَ لهم بالجنّة و «الشَّفَع» إخلاصهم لله و
«الْوَتْرَ» طاعتهم لله. ويحتمل أن يكون المراد من الفجر،
فجر اليوم الذي ولد فيه النّبي صلّى الله عليه وآله أو فجر اللّيلة التي أسرى
فيها بالنّبي صلّى الله عليه وآله والشّفيع قلبه والوتر روحه لأنّ جميع لطائفه
صلّى الله عليه وآله حصلت لها الارتقاء والمعراج في تلك اللّيلة.

٣٤. وكذلك أقسم الله تعالى بقوله: «لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ
﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾» أقسم الله تعالى ببلد ولادته
صلّى الله عليه وآله وسكنته صلّى الله عليه وآله لأنّه شرفه بمولده، ومكانه، وقيامه

www.MinhajBooks.com

صلّى الله عليه وآله

فأما الوجه الأول في هذه الآية: أي أقسم ببلد الحرام، الذي أنت فيه لِحَبِّي لك ولكرامتك عليّ، وقيل معناه: “وأنت مقيم” فيه وهو محلّك أي من أهل مكة نشأت بينهم وإنهم يعرفون فضلك وطهارتك وقيل أنت فيه محسنٌ وأنا عنك فيه راضٍ ويجوز أن تكون “لا” زائدة كما قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۗ﴾^١ وقرأ الحسن، والأعمش وابن كثير ﴿لَأُقْسِمُ﴾ من غير ألف بعد اللام إثباتاً وتأكيداً، وروى منصور عن مجاهد في ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ﴾ قال: ما صنعت فيه شيئاً فأنت فيه حل. قال ابن زيد: ولم يكن بها أحد حلالاً غير النبي صلّى الله عليه وآله.

والوجه الثاني في هذه الآية: أن الجملة حالية و“لا” نافية أي: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۗ﴾ وأنت حال مقيم بها لعظم قدرك أي: لا نقسم بشيء وأنت أحق بالإقسام بك من كل شيء ومكان.

والوجه الثالث في هذه الآية: أن تكون “لا” بمعنى
“الأ” هي استفهام الإنكار والإنكار نفيٌ وقد دخل على
النفي، ونفي النفي إثبات فيكون تقديره “لِمَا لا أقسم بهذا
البلد وأنت حال مقيم فيه” فهذا الاستفهام يدلّ على
الإثبات والتحقق وردّ إمكان النفي والإنكار.

والوجه الرابع في هذه الآية هي نفيٌ صحيحٌ والمعنى:
﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ إذا لم تكن فيه بعد خروجك
منه، حكاها الإمام المكيّ ورواه ابن أبي نجیح عن مجاهدٍ
وهذا اختيار ابن العربي أيضاً ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾
يجوز أن يرد حلٌّ بمعنى حال من الحلول وهو النزول، أي
والحال أنت يا محمد، حال في مكة نازل بها، قيّد الله تعالى
إقسامه بمكة بحلّوله عليه السلام فيها إظهاراً لمزيد فضلها فإنها بعد
أن كانت شريفة بنفسها زاد شرفها بحلول النبي العظيم
الشريف عليه السلام فحصل للمكان شرفٌ مزيدٌ بشرف المكين
وهو محلّ قدمي النبي عليه السلام وفي هذه الجملة تعريض لأهل

مكة بأنهم لجهلهم يرون أن يخرجوا منها من به مزيد
شرفها ويؤذوا من به مزيد أمنها.

٣٦/٣٥. وكذلك أقسم الله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ﴾^١

وقيل: الوالد إبراهيم وإسماعيل ﴿وَمَا وَلَدٌ﴾ فهي إشارة إلى

سيدنا محمد ﷺ وفيها مناسبة معنوية تامة يقتضي بها

سياق السورة، وقال الماوردي: يحتمل أن الوالد هو النبي

ﷺ لتقدم ذكره ﴿وَمَا وَلَدٌ﴾ أمته لقوله ﷺ: «إنما أنا لكم

بمثلة الوالد أعلمكم». أخرج أبو داود في السنن،

والنسائي، وابن ماجه.

٣٨/٣٧. وكذلك أقسم الله تعالى له ﷺ ليحقق علو

مكانته وعظمة خلته، ورفع أحييته ﷺ عنده تعالى وقال:

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ

﴿٣﴾﴾^٢ فأقسم الله تعالى لحبيه ﷺ في ردّ المشركين أو في

١. البلد، ٩٠: ٣

٢. الضحى، ٩٣: ١-٣

ردّ امرأةٍ مشرّكةٍ (وهي أم جميل امرأة أبي لهب) إذ تكلمت
عند فترة الوحي، وقالت: "ما أرى صاحبك إلا قد
ودّعك وقلاك"، وهذا القسم كان من كرامة الله تعالى
له صلّى الله عليه وآله وتنويهه به صلّى الله عليه وآله وتعظيمه إياه صلّى الله عليه وآله وقال: أي
وربّ الضحى وهذا من أعظم درجات المحبة والمبرّة وبيان
المكانة والحظوة لديه وأخبر بهذا القسم عن حاله بأن الله
تعالى ما تركك منذ اختارك وما أبغضك منذ أحبك وما
قطعك منذ وصلك، وقال الواسطي: ما أهملك بعد أن
اصطفاك، وقال ابن عطاء: ما حببك عن قربه حين
بعثك إلى خلقه وقال الجنيد البغدادي: ﴿وَالضُّحَى﴾ هو
مقام الشهود، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ هو مقام الغين الذي قال
النبي صلّى الله عليه وآله فيه: «إنه ليغان على قلبي». رواه مسلم وأبو داود.
وأقسم بالضحى وهي الساعة التي فيها ارتفاع الشمس
واعتدال النهار في الحرّ والبرد وفي الصيف والشتاء فيحتمل
أن تكون فيه إشارةٌ إلى ارتفاع شمس الرّسالة المحمّدية صلّى الله عليه وآله

التي تنسخ وجودها ظلمة الليل وانبسط نورها وضوؤها
على وجه الأرض وعلى مشارقها ومغاربها مع كونها معتدلة
لا شدة في حرّها ولا في بردها وهي صفة النبوة المحمدية
ﷺ وخلقها وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق ﷺ أن
المراد بالضحي الساعة التي كلم الله فيها موسى ﷺ
وبالليل: ليلة المعراج، كما رواه القشيري.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ معناه إذا سكن واستقرّ، يقال
في اللغة: سجا البحر سجوا إذا سكنت أمواجه وليلة
ساجية: أي ساكنة الريح وفي إسناد سكون الظلمة الكائنة
بمجاز علاقته الحلول والظرفية، فإنّ الزمان ظرف لما فيه
فمعناه: إذا سكن أهله، فهو مجازٌ أيضاً من إسناد ما للشيء
إلى زمانه، نحو نهاره صائمٌ وليله قائمٌ، إشارةً إلى سكون
الناس فيه وطمانينتهم واستقرارهم، فأقسم الله تعالى بليلة
معراج النبي ﷺ إذا حصل له سكونٌ وطمانينةٌ بلقائه
وشرفه الله تعالى بالاستقرار وعدم التغيّر في حاله إذا شاهده

ومكّنه على مقام ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ ﴿٤٧﴾ وفي قسم
الضُّحَى إشارةٌ أخرى إلى النبوة المحمّدية ﷺ لأن الضحى
ساعةٌ من النهار والليل ساعاتٌ فذكر ساعةً بالضحى
وجميع ساعاتٍ بالليل ذلك إشارةٌ إلى أن ساعةً واحدةً من
النهار توازي جميع ساعات الليل بل غلبت كلّها. وكذلك
أقسم الله تعالى بأنّ محمداً ﷺ يوازي جميع الأنبياء
 والمرسلين، ونبوّته، تساوي جميع النبوات بل غلبت
وتفوّقت وتفضّلت عليها من كلّ الوجوه، ففيه إشارةٌ إلى
أن الله تعالى أقسم وقال: يا محمد، يا حبيبي، ما تركتُ
أحدًا من الأنبياء والمرسلين إذ أرسلته إلى قومٍ أو قبيلةٍ أو
موضعٍ فكيف نتركك ونقطعك وأرسلناك إلى كافّة
الناس بشيراً ونذيراً وجعلناك رحمةً للعالمين وأعطيناك
النبوة والرّسالة التي هي شاملةٌ وجامعةٌ لجميع كمالهم
وآياتهم وحسناتهم وكراماتهم وختمنا بك النبوة والرّسالة
وجعلنا بعثتك ضحىً للعوالم والكائنات كلّها.

قال الفراء: «الضْحَى» هو النهار كله، وقال المبرّد:

أصل الضْحَى الصُّبْح وهو نورُ الشَّمس وقال أبو الهيثم:

الضْحَى نَقِيضُ الظِّلِّ وهو نورُ الشَّمس المنبسط على وجه

الأرض الذي يمحو ظلمة الليل. وقال أبو محمّد البقلي

الشيرازي: أقسم الله تعالى بقوله: «وَالضُّحَى» أي بطلوع

شمس عرفانك يا محمد، في أيام الوصلة، «وَأَلَّيْلٍ إِذَا سَجَى»

وبليل الفرقة إذا كنتَ في غلبة الحيرة حيث قلتَ “لا

أحصي ثناء عليك”!

وقال ابن عطاء: «وَالضُّحَى» أي أقسم

بمكاشفاتِ سِرِّكَ بنا «وَأَلَّيْلٍ إِذَا سَجَى» أي أقسم

باشتغالِك بالدعوة وأمر الرسالة، لأنَّ شمس المكاشفة

بجمالِ الله تعالى تطلع وتنشر على مَطَلَعِ الخلوّة مع الله

التي كانت تحصل له ^{وَاللَّيْلَةُ} في غار حراء، التي أخبرت بها

عائشة ^{رضي الله عنها}: ثُمَّ حَبَّ إِلَيْهِ الخلاء وكان يخلو بغار حراء

فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ، وهو تَعَبُّدُ اللَّيَالِي ذوات العدد، قبل أن يَنْزِعَ

إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ... حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارٍ
حَرَاءٍ. رواه البخاري ومسلم.

فَتَبَيَّنَ أَنَّ فِي «الضُّحَى» إشارة إلى كَشْفِ الْحِجَابِ
وَالشُّهُودِ الذَّاتِي وَفِي «الَّيْلِ» إشارة إلى مقام الاجتهاد
لِدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَرْغَبُ مِنَ الْخَلْقِ
إِلَى الْحَقِّ وَيَتَوَجَّهُ وَيَتَفَرَّغُ إِلَى الذَّاتِ، فَاشْتَعَلَ الشَّهَابُ،
وَارْتَفَعَ الْحِجَابُ، وَاكْتَشَفَ مَا كَانَ فِي الْغِيَابِ، فَتَمَّ ذَوْقَهُ
وَكَمَلَ شَوْقَهُ ﷺ هَذَا الْمَقَامَ كَانَ يَطْلُبُ مَحْضَ الْإِعْرَاضِ
عَنِ الْخَلْقِ وَالانْقِطَاعِ، وَكَمَالَ التَّبَتُّلِ وَالتَّجْرِيدِ عَمَّا سِوَى
اللَّهِ الْأَحَدِ الْفَرْدِ الصَّمَدِ، وَهَذَا هُوَ «الضُّحَى» وَهُوَ كَانَ
عُرُوجُهُ فِي السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ، «وَالَّيْلِ إِذَا سَجَى» هُوَ كَانَ نَزُولُهُ
فِي السَّيْرِ عَنِ اللَّهِ، وَالنَّزُولُ هُوَ إِكْمَالُ الْعُرُوجِ وَإِتْمَامُهُ،
فَجَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ كَمَالٍ فِي نُبُوَّتِهِ ﷺ فَأَقْسَمَ مَرَّةً
بِجَمْعِهِ وَمَرَّةً بِتَفْرِيقِهِ ﷺ وَأَقْسَمَ مَرَّةً بِعُرُوجِهِ وَمَرَّةً
بِنَزُولِهِ ﷺ وَمَرَّةً بِوَلَايَتِهِ وَمَرَّةً بِرِسَالَتِهِ ﷺ وَمَرَّةً

بإنقطاعه إلى حَضْرَةِ الْحَقِّ وَمَرَّةً بَاشْتَعَالَهُ ﷺ إِلَى دَعْوَةِ
 الْحَقِّ، فَشَرَّفَهُ وَمَيَّزَهُ ﷺ بِجَمْعِ الْجَمْعِ بِشَأْنٍ عَظِيمٍ حَيْثُ
 جَمَعَهُ ﷺ مَا أَسْقَطَ تَفَرِّقَتُهُ ﷺ وَتَفَرَّقَتُهُ ﷺ مَا أَسْقَطَتْ
 جَمْعُهُ ﷺ وَأَعْطَاهُ ﷺ الْبِرَاءَةَ مِنَ التَّلَوِينِ، وَمَكَّنَهُ ﷺ
 عَلَى عُلُوِّ صِحَّةِ التَّمَكِينِ وَهَذَا كَانَ تَشْرِيفَهُ ﷺ بِغَايَةِ
 الْكَمَالِ وَنِهَايَةِ الْإِتِّصَالِ وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ
 لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾ فَجَمَعَ اللَّهُ ﷻ
 لَهُ الْقَسَمَيْنِ: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ فَإِنِّي أَبْرَأُ
 إِلَى اللَّهِ مِنَ الْخَطَلِ وَالْخَطَأِ.

٤٢/٣٩. وكذلك أقسم الله تعالى بأربعة أشياء وأماكن،
 فإثنا: “التين، والزيتون، وطور سينين، والبلد الأمين”
 وهناك أقوال وتعبيرات في معنى هذه الأقسام: قَالَ اللَّهُ ﷻ:
 ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سَيْنِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ

www.MinhajBooks.com

﴿٢﴾: 'القول الأوّل: أي أقسم الله تعالى بعصر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو العهد الذي طفق فيه آدم وزوجه يخصفان عليهما من ورق الجنة، (أخرجه الديلمي في "مسند الفردوس" وأبو نعيم في "الطب" وابن السّبي و ذكر ابن القيم في "الزاد" والسيوطي في "الطب النبوي") وروى أبو ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: أهدى للنبي ﷺ سل تين. فقال: «كلوا» وأكل منه ثم قال: «لو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه». ذكره القرطبيّ والحافظ ابن حجر. روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ﴿وَطَفِقَا تَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾^ط قال: ينزعان ورق التين فيجعلانه على سواتهما. ذكره الحافظ ابن كثير. وقال القرطبي: وقيل: جعلتا يلصقان عليهما ورق التين.

www.MinhajBooks.com


١. التين، ٩٥: ١-٣

٢. طه، ٢٠: ١٢١

والثاني: أخرج الطبري وابن أبي حاتم: ﴿التين﴾
مسجد نوح عليه السلام الذي بُني على الجودي، ذكره ابن كثير،
والقرطبي وغيرهما.

والثالث: قال عكرمة وابن زيد: ﴿التين﴾ مسجد
دمشق، وقال قتادة: ﴿التين﴾: الجبل الذي عليه دمشق،
ذكره القرطبي وابن كثير وغيرهما، ودمشق هو مهاجر
سيدنا إبراهيم عليه السلام وهذا اختيار الطبري أيضاً.

الرابع: قال محمد بن كعب: ﴿التين﴾ مسجد
أصحاب الكهف، ذكره البغوي والقرطبي وغيرهما.
الخامس: قال الضحاك: ﴿التين﴾ المسجد الحرام،
ذكره القرطبي وغيره والمسجد الحرام هو مقام سيدنا محمد
النبي الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الذي بدأ به سفره الإسراء ليلة
المعراج وهو مولده صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً.

وفي قوله: ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ أقوالٌ. أولها: قال ابن عباس رحمتهما، وكعب الأحمبار، وقتادة، وابن زيد وغيرهم: هو مسجد بيت المقدس وقال الضحّاك: ﴿الزَّيْتُونِ﴾: المسجد الأقصى، ذكره الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والبغوي وغيرهم، وقال قتادة: ﴿الزَّيْتُونِ﴾، الجبل الذي عليه بيت المقدس، وقال عكرمة وابن زيد: ﴿الزَّيْتُونِ﴾: بيت المقدس، وهذا اختيار الطبري وغيره، وقال المراغي: إن الله أقسم بالزَّيْتُونِ عَصَرَ نوحَ عليه السلام وذريته كما أقسم بالتين عصر آدم عليه السلام. وفي قوله: ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾  هو جبل سيناء الذي نادى الله تعالى منه موسى عليه السلام، قال كعب الأحمبار وعكرمة، وقتاده ومجاهد: هو الجبل الحسن المبارك، الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام. (ذكره الطبري، والقرطبي، وابن كثير والسيوطي وغيرهم).

وفي قوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ يعني مكة. قاله ابن عباس رحمتهما، ومجاهد، وعكرمة، والحسن البصري،

وإبراهيم النخعي، وابن زيد، وكعب الأحمار وغيرهم، ولا خلاف في ذلك، وأقسم بهذا البلد الأمين الذي شرفه الله تعالى بميلاد رسوله وحيبيه محمد صلى الله عليه وآله فيه كما قال صلى الله عليه وآله:

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾. ١

الآن نذكر حكمة الأقسام بهذه الأماكن، فحكمتها: الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والصالحين، فمنبت التين والزيتون: مهاجر إبراهيم ومولد عيسى ومنشأهما صلى الله عليه وآله ومقر الأنبياء عليهم السلام. والطور: المكان الذي نودي فيه موسى صلى الله عليه وآله ومكة ﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ هو مولد رسول الله صلى الله عليه وآله ومبعثه. فإن هذه الأقسام ولو اعتبرت بعصور الأنبياء الطيبة أو بأماكن مقدسة أو بأشياء مباركة، ولكن لا خلاف فيه بأن حكمة كل قسم تشمل نسبة واحدة مشتركة في كلها وهي الإضافة بالأنبياء والصالحين.

نقل ابن كثير عن بعض الأئمة، قال: هذه مَحَالُّ
ثلاثة، بعث الله في كُلِّ واحدٍ مِنْهَا نبيًّا مرسلًا مِنْ أُولَى
العزم، أصحاب الشرائع الكبار، فالأوَّل: محلَّة التَّيْنِ
والزَّيْتُونِ، وهي بيت المقدس الَّتِي بعث اللهُ فيها عيسى ابن
مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأقسم اللهُ تعالى بهذا المكان تعظيمًا له، والثَّاني:
طور سينين، وهو طور سيناء الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عليه موسى بن
عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأقسم اللهُ تعالى بهذا المكان تعظيمًا له،
والثَّالث: مكَّة، هو البلد الأمين، وهو الَّذِي أُرْسِلَ فِيهِ
مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فأقسم اللهُ تعالى بهذا المكان تعظيمًا له، وذكر
في آخر التَّوراة هذه الأماكن الثلاثة: جاء اللهُ مِنْ طور
سيناء يعني كَلَّمَ اللهُ عليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وأشرق مِنْ سَاعِيرَ
يعني جبل بيت المقدس الَّذِي بعث اللهُ مِنْهُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ،
وَاسْتَعْلَنَ مِنْ جِبَالِ فاران يعني جبال مكَّة الَّتِي أُرْسِلَ اللهُ
مِنْهَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. فذكرهم مُخْبِرًا عَنْهُمْ عَلَى التَّرْتِيبِ
الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان ولهذا أقسم بالأشرف

والأكرم، ثم الأشرف والأكرم منه، ثم الأشرف والأكرم
منهما وهو نبيُّ آخرِ الزّمان وخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

فجعل اللهُ نُبُوَّةَ موسى ﷺ بمنزلة مجيء الصّبح،
ونبوَّة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشّمس وإشراقها، ونبوَّة
محمّد ﷺ بعدهما بمنزلة استعلانها وظهورها للعوالم
والكائنات كلّها.

وقال القرطبي: إنّه أراد بالتّين دمشق وهو أرض
الشام، وبالزّيّتون بيت المقدس، فأقسم اللهُ بجبلِ دمشق لأنّه
مأوى عيسى ﷺ وبجبل بيت المقدس لأنّه مقام الأنبياء
عليهم السلام وبمكة لأنّها أثر إبراهيم ودار محمد ﷺ.

فأقول: يحتمل بأنّ الله تعالى أقسم بهذه الأماكن
المقدّسة لأنّها منازلُ سفرِ الحبيب ﷺ ليلة الإسراء من
المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، لأنّ النّبِيَّ ﷺ بدء
سفره من البلد الأمين وهو مكة، فركب البراق وذهب إلى
أرض المدينة لأنّه كان مهاجرة ﷺ.

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى طُورِ سَيْنَاءَ حَيْثُ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى مَوْلِدِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ أُمَّ
جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى. ثُمَّ صَعِدَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَمَا
فَوْقَهَا، فَطَرِيقَ سَفَرِهِ كَانَ بِأَرْضِ الشَّامِ وَهُوَ مُهَاجِرٌ إِبْرَاهِيمَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكُلَّهُ، يُقَالُ أَرْضُ التِّينِ وَالزَّيْتُونِ، كَمَا رَوَى النَّسَائِيُّ
عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَتَيْتُ
بِدَابَّةٍ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، خَطُّوْهَا عِنْدَ مُنْتَهَى طَرَفِهَا،
فَرَكِبْتُ وَمَعِيَ جَبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَرْتُ. فَقَالَ: أَنْزَلَ فَصَلَ.
فَفَعَلْتُ، فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتُ؟ صَلَّيْتُ بِطَبِيبَةٍ وَإِلَيْهَا
الْمُهَاجِرُ. ثُمَّ قَالَ: أَنْزَلَ فَصَلَ. فَصَلَّيْتُ، فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ
صَلَّيْتُ؟ صَلَّيْتُ بِطُورِ سَيْنَاءَ، حَيْثُ كَلَّمَ اللَّهُ ﷻ مُوسَى
عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ قَالَ: أَنْزَلَ فَصَلَ. فَصَلَّيْتُ، فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ
صَلَّيْتُ؟ صَلَّيْتُ بَيْتِ لَحْمٍ، حَيْثُ وُلِدَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ
دَخَلْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَجُمِعَ لِي الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

فَقَدَّمَنِي جَبْرِيلُ حَتَّى أَمَمْتُهُمْ ثُمَّ صُعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ
الدُّنْيَا...» الْحَدِيثُ.

وروى البزار والطبراني عن شداد ابن أوس رحمته الله
قال: قلنا: يا رسول الله! كيف أُسْرِي بك ليلة أُسْرِي بك؟
قال: «صَلَّيْتُ لِأَصْحَابِي صَلَاةَ الْعَتَمَةِ بِمَكَّةَ مَعْتَمًا. فَأَتَانِي
جَبْرِيلُ بِدَابَّةٍ بِيضَاءَ فَوْقَ الْحَمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، فَقَالَ:
ارْكَبْ، فَاسْتَصْعَبْتُ عَلَيَّ فَأَدَارُهَا بِأَذْنِهَا، حَتَّى حَمَلْتَنِي عَلَيْهَا،
فَانْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا تَضَعُ حَافِرَهَا حَيْثُ أُدْرِكُ طَرْفَهَا، حَتَّى
انْتَهَيْنَا إِلَى أَرْضِ ذَاتِ نَخْلٍ. فَقَالَ: انْزِلْ. فَتَرَلْتُ، ثُمَّ قَالَ:
صَلِّ، فَصَلَّيْتُ، ثُمَّ رَكَبْنَا، فَقَالَ لِي: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتُ؟
قُلْتُ: اللَّهُ أَعْلَمُ، قَالَ: صَلَّيْتُ بِبِثْرَبِ، صَلَّيْتُ بِطَيْبَةَ، ثُمَّ
انْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا تَضَعُ حَافِرَهَا حَيْثُ أُدْرِكُ طَرْفَهَا، ثُمَّ
بَلَغْنَا أَرْضًا بِيضَاءً. فَقَالَ لِي: انْزِلْ، فَانْزَلْتُ. ثُمَّ قَالَ لِي:
صَلِّ. فَصَلَّيْتُ، ثُمَّ رَكَبْنَا، فَقَالَ: تَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتُ؟ قُلْتُ:
اللَّهُ أَعْلَمُ. قَالَ: صَلَّيْتُ بِمَدِينِ، صَلَّيْتُ عِنْدَ شَجَرَةِ مُوسَى

عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثم انطلقت تهوى بنا تضع حافرها — أو يقع حافرها — حيث أدرك طرفها، ثم ارتفعنا. فقال: انزل. فترلت، فقال: صل، فصليت، ثم ركبنا، فقال لي: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت بيت لحم حيث ولد المسيح عيسى ابن مريم. ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها الثامن فأتى قبلة المسجد...» الحديث.

وروي هذا الحديث من طريقين، وهذا إسنادٌ صحيحٌ. ثم ساق أحاديث كثيرة في الإسراء كالشاهد لهذا الحديث، وروى أيضاً هذا الحديث الإمام ابن أبي حاتم في تفسيره وذكره الحافظ ابن كثير وغيره.

فَتَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ الْمَنْزِلَةَ الْأُولَى فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ كَانَتْ الْمَدِينَةَ، هُوَ مُهَاجِرُ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْمَنْزِلَةَ الثَّانِيَةَ كَانَتْ الطَّوْرَ وَهُوَ مَكَانُ مُوسَى ﷺ وَالْمَنْزِلَةَ الثَّلَاثَةَ كَانَتْ بَيْتَ لَحْمٍ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَهُوَ مَكَانُ عَيْسَى ﷺ وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى وَهُوَ مَقَرُّ الْأَنْبِيَاءِ وَمَجْمَعُهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَكَانَ مَبْدَأَ

سَفَرِهِ ﷺ مَكَّةَ وَهُوَ الْبَلَدُ الْأَمِينُ، وَطَرِيقُهُ أَرْضُ الشَّامِ
وَهُوَ مُهَاجِرٌ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيُقَالُ لَهُ أَرْضُ التِّينِ وَالزَّيْتُونِ،
وَهَذِهِ كَانَتْ مَنَازِلَ السَّفَرِ الْأَرْضِيِّ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ كَمَا قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ
لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ١.

وَلِذَلِكَ لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ مِنْ
الْأَنْبِيَاءِ الْعِظْمَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي
تِلْكَ اللَّيْلَةِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ، كَمَا رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرَى بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ
بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ. وَقَالَ الْبُوصَيْرِيُّ: رَجُلٌ هَذَا الْحَدِيثُ
ثِقَاتٌ، وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ يَقُولُ: إِنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ إِتْمَهَى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ، لَقِيَ فِيهِ

إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، فجعل الله تعالى
كلَّ أحدٍ منهم مُقسماً عليه حينَ أقسمَ بِأَماكنهم وبلادهم
وجبالهم وجعل كلَّ أحدٍ مِنَ الأقسامِ لِلنبيِّ الحبيبِ المصطفى
ﷺ تعظيماً وتكريماً له وإظهاراً لِقدره ﷺ ومنزلته
ﷺ عنده ورفعته ﷺ وعظُمته ﷺ لَدَيْهِ، حيث جعل
جميعَ منازلِ سفرِهِ ﷺ الإسرائِءَ مُقسماً به.

وبقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ ٧ وعلى أحدٍ
مِنَ الأقوال، المخاطب به النبي ﷺ و"ما" للنفي أو
لِلإستفهام الإنكاري والمعنى لا شيء يكذبك أو فأيّ شيء
يكذبك أي يدلّ على كذبك في قولك بالجزاء بعد هذه
الأقسام والدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على صدقك.
وقيل "ما" بمعنى "من" والإستفهام للتعجب يعني من
ينسبك إلى الكذب بعد تلك الأقسام والشواهد على
صدقك. فمعنى الآية تكون: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ يا محمد، على

طريق الالتفات. فكأنه تعالى قال: فمن يقدر على تكذيبك أيها الرسول لسبب إثباتك الجزاء وإخبارك عن البعث والثواب والعقاب وذكر هذا المعنى ابن جرير الطبري والإمام سليمان الجمل، فالحاصل بالخطاب ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي أردنا أن يطمئن قلبك يا حبيبي، على ما بينا لك بعد هذه الأقسام. وفي قوله: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ المجاز المرسل بإطلاق الحال وإرادة المحل، لأنه أراد مواضعهما في قوله: ﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ والمجاز العقلي، من إسناد ما للشيء إلى مكانه لأن الأمن إنما يكون لمن وُلِدَ وُبُعِثَ فيه وهو النبي الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله.

٤٣. وكذلك أقسم الله تعالى بعصر النبي صلى الله عليه وآله على أحد من الأقوال لفضله بتجديد النبوة فيه، ذكره القرطبي وروي عن أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وآله في تفسير: ﴿وَالْعَصْرُ﴾ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ٢: أبو جهل، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أبو بكر رضي الله عنه، ﴿وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: عمر

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ عثمان رضي الله عنه ، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾
 علي رضي الله عنه ^١ وقال القرطبي بعده: وهكذا خطب ابن
 عباس رضي الله عنهما على المنبر موقوفاً عليه. وقال الخازن: قيل:
 أراد بالعصر زمن رسول الله صلوات الله وسلامته عليه أقسم بزمانه كما أقسم
 بمكانه في قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ^٢ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا
 الْبَلَدِ ^٣ نَبَّهَ بذلك على أن زمانه، أفضل الأزمان
 وأشرفها، كما مكانه أفضل الأماكن وأشرفها. وذكر
 الإمام سليمان الجمل: وقيل: العصر الزمن المختص به صلوات الله وسلامته عليه
 وبأتمته أي: والعصر الذي أنت فيه فأقسم بمكانه صلوات الله وسلامته عليه في
 قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ^٢ وأقسم بعمره صلوات الله وسلامته عليه
 ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ^٣ وأقسم بعصره
صلوات الله وسلامته عليه هنا فكأنه قال: وعصرك وبلدك وعمرك، فأقسم
 بهذه الظروف الثلاثة، فإذا وجب تعظيم الظرف فحال

www.MinhajBooks.com

١. العصر، ١٠٣: ١-٣

٢. البلد، ٩٠: ١

٣. الحجر، ١٥: ٧٢

المظروفِ مِنْ بابِ أُولَى، هَكَذَا قَالَ الْإِمَامُ الْفَخْرُ الرَّازِي
أَيْضًا فِي تَفْسِيرِهِ.

فَاعْلَمُوا أَنَّ فَضَائِلَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَنَاقِبَهُ وَخِصَائِصَهُ لَا
تَنْتَهِي، وَلَيْسَ هَذَا الْكِتَابُ مَصْنُفًا يَسْتَوْعِبُ كَثِيرًا مِنْهَا،
وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا بَعْضَ الْفَضَائِلِ النَّبَوِيَّةِ ﷺ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي
أَقْسَامِ الْقُرْآنِ عِبَارَةً أَوْ دَلَالَةً، وَهَذِهِ نُبْدُ يَسِيرَةٍ مِنْ شَرَفِهِ
وَكَمَالِهِ ﷺ فَلَنْقُتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَيَكُونُ هَذَا آخِرَ كَلَامِنَا
فِي هَذَا الْكِتَابِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَكْرَمِ، الْمُشَرَّفِ الْمُسْتَنْصِرِ
لِلْأَنْبِيَاءِ وَأَوْلِيَائِهِ وَخَاصَّةً لِصَفْوَةِ رُسُلِهِ وَأُمَمَائِهِ وَقُدُورَةِ أَحِبَّائِهِ
وَأَخْلَائِهِ، الَّذِي جَعَلَ شَرِيعَتَهُ نَاسِخَةً لْجَمِيعِ شَرَائِعِهِ، وَجَمَعَ
آدَمَ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لُؤَائِهِ وَأَقْسَمَ لَهُ فِي كِتَابِهِ بِآيَاتِهِ وَآلَائِهِ،
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَاتِّبَاعِهِ وَأَشْيَاعِهِ
وَبَارَكَ وَسَلَّمَ. فَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْوَفْرَةَ وَالْإِزْدِيَادَ مِنْ
مَحَبَّتِهِ وَقُرْبَتِهِ وَامْتِنَالِ سُنَّتِهِ وَنُصْرَةِ دِينِهِ وَخِدْمَتِهِ وَالْإِقْتِدَاءَ
بِهِ، وَكَثْرَةَ ذِكْرِهِ، وَتَعْظِيمَهُ، وَتَوْقِيرَهُ وَالشُّوقَ إِلَى لِقَائِهِ،

وَأَعِطْنَا حُبَّ مَنْ أَحَبَّهُ وَالْبُغْضَ لَجَمِيعِ أَعْدَائِهِ ﷺ. وَارْزُقْنَا
يَا مَوْلَانَا! مَعْرِفَةَ كَمَالِهِ ﷺ، وَمُشَاهَدَةَ جَمَالِهِ. وَاجْعَلْ لَنَا
يَوْمَ الْآخِرَةِ يَوْمَ وَصَالِهِ ﷺ وَأَنْفَعْنَا بِشَفَاعَتِهِ وَكَرَمِهِ وَتَوَالِهِ

ﷺ
وَالرَّبِّسَةَ .

فَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا
بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ، وَلَا حَوْلَ
وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

لِكَلِّجَعَلْنَا مِنْكُمْ شِعْرًا مِنْهَا جَا

www.MinhajBooks.com